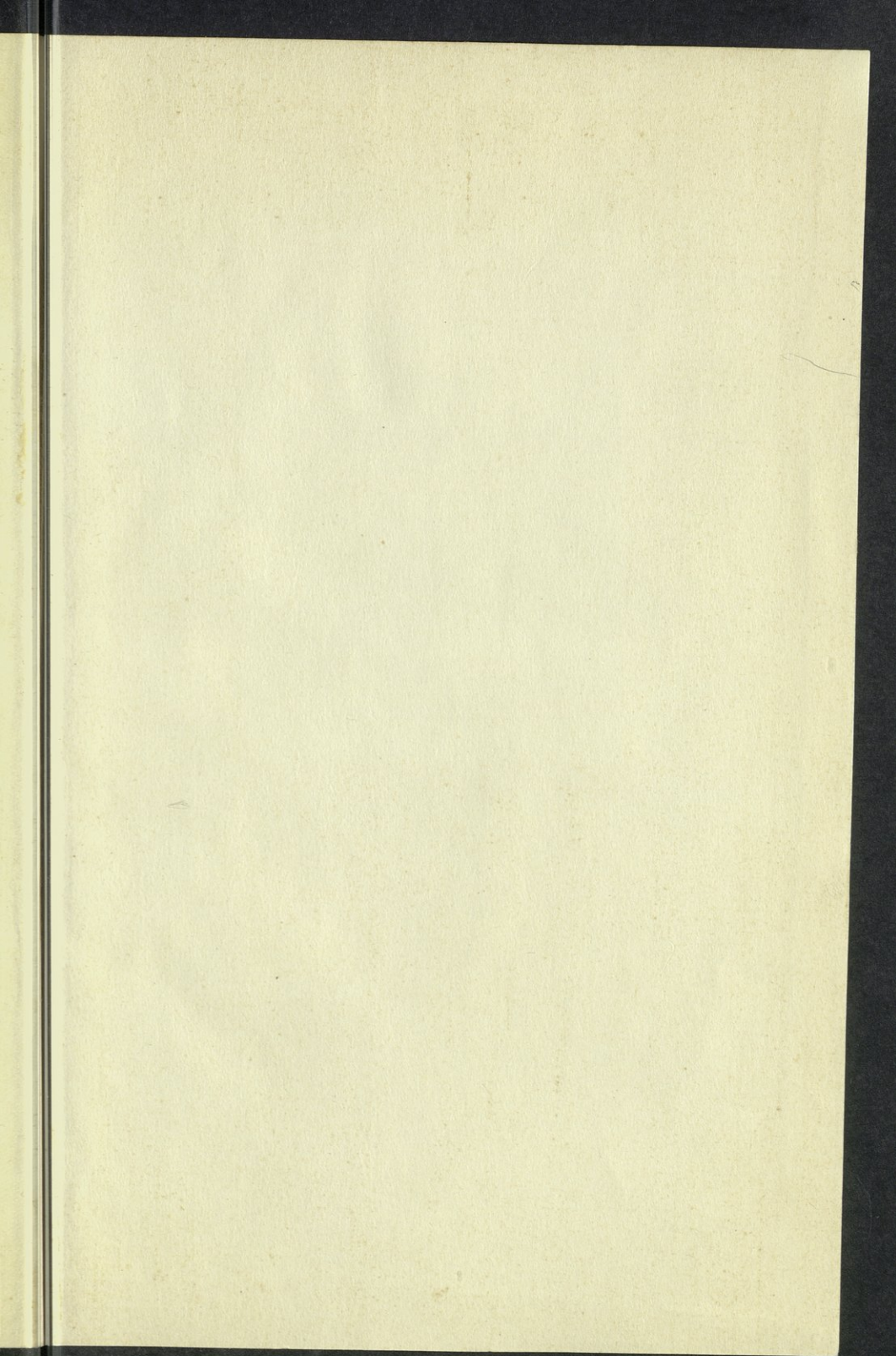


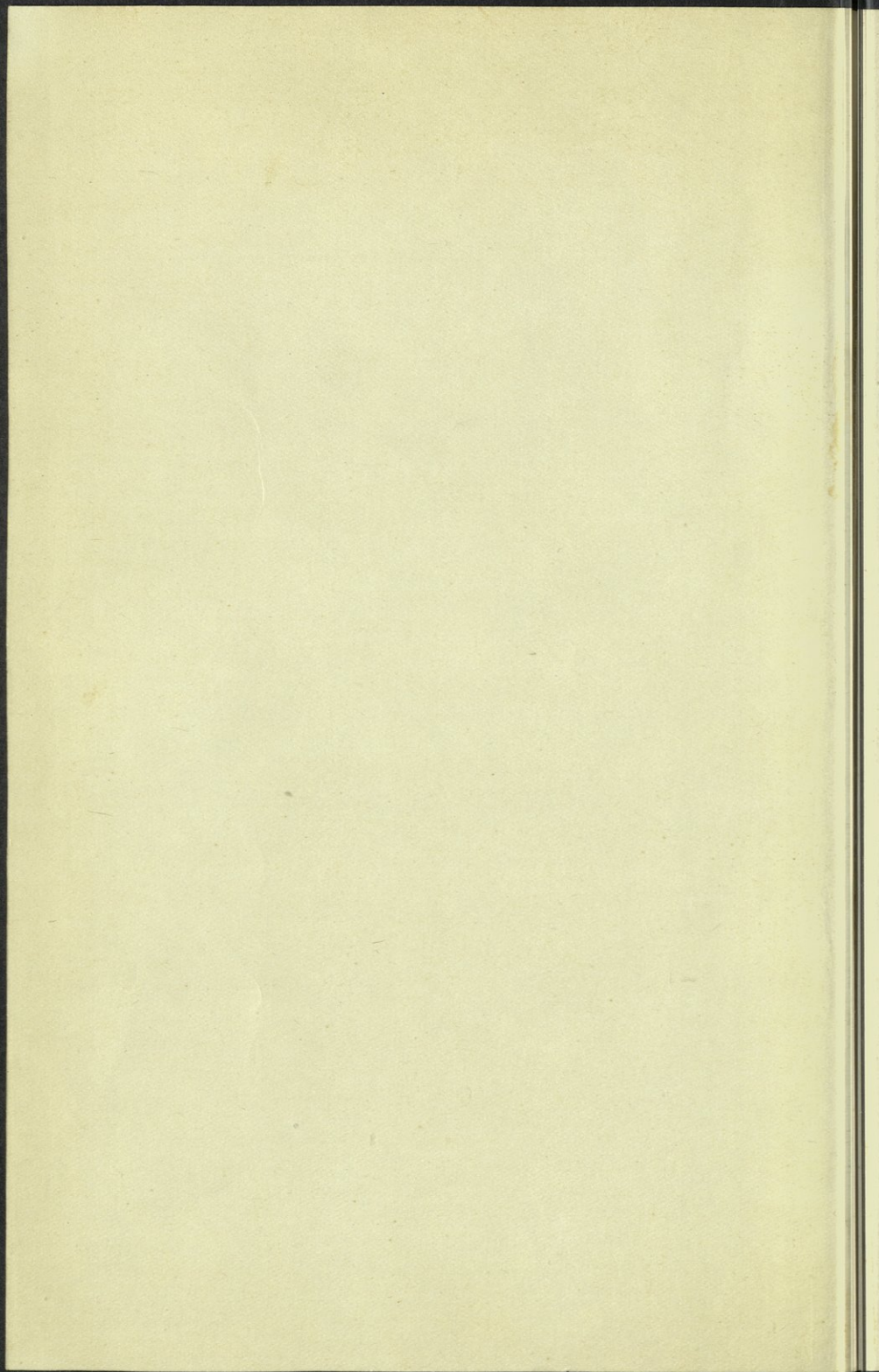
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

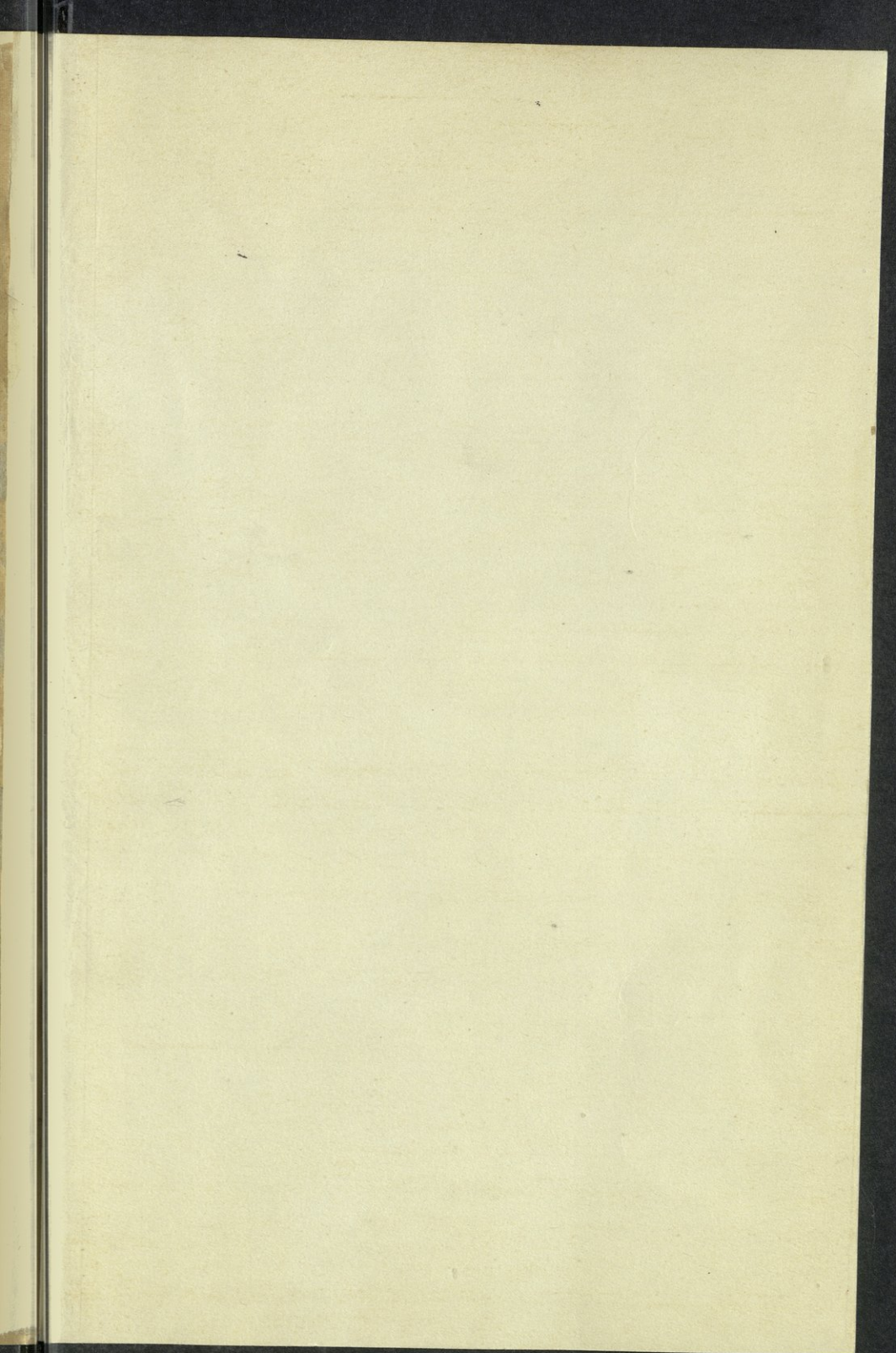


مجلد صالح النقر

تلفظ ۲۲۲۷۷







CA = 940.42

F94hA

C.1



الحملة المصرية

نمبر ١

أو

من باريس إلى صحراء التتير

فصول عسكرية ومطالعات سياسية في صروب الأتراك وثورة العرب وغير ذلك من المسائل الهامة التي تتعلم بالثرب العظيم

بقلم

علي فؤاد بك

رئيس أركان حرب جمال باشا وقائد الفيلق الثامن

نقله إلى العربية

نجيب الأرمنازي

المحرر في جريدة الأهرام

بمطبعة حماه سنة ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

SP 45





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه رسالة الفها علي فوآد بك رئيس اركان حرب جمال
باشا وقائد الفيلق الثامن الذي كان يقاتل في فلسطين . وقد
اطلعت عليها فما اجلت فيها النظرة الاولى حتى مضيت الى آخرها
وقام في نفسي ان انقلها الى قراء العربية ليطالعوا على شي من
تلك الوقائع ومقدماتها وخطط قائديها ومدارك رجالها وعلى
حديث الحملة التي أعدت لغزو مصر ، وعلى عوامل ثورة العرب
كما يراها من هو في منزلة المؤلف ووقوفه على سبر الامور .
ولكل امة نصيبها في هذه الحرب التي حفلت بجلائل
الاعمال - وموضع عنايتها واهتمامها من حوادثها وانبائها .
ونصيبنا نحن ابناء هذا الشرق ، في المعارك التي التحمت
في ربوعه وكان لها اجل شأن في مصير بلاده وحياة شعوبه فلا

غرو اذا كان لمطالعة حوادثها اثر كبير في النفوس ولا سيما اذا
دونها رجل حضر الوقائع ومارسها وكانت له قيادة فيها .
ويظهر من كلام منشي الرسالة ان رأيه قد بين آراء
بعض الرجال النافذي الكلمة في قومه وانه يشكو استئثار فريق
منهم وافئساتهم^(١) في الامر . وقد وصف رسالته في المقدمة التي
انشأها فقال انه اثبت فيها ما بقي في نفسه من اثار الحروب والوقائع
وصفات الرجال والقواد .

ثم قال : « ان الرزية الكبرى التي اطلقنا عليها اسم
« الحرب العامة » سيكون لها اكبر تاثير في مستقبل ابنائنا وذرائنا
ولذلك فاني ارى من الواجب على الاحياء الذين اشتركوا في
الحرب وكان لهم شأن فيها ، جل او صغر ، ان يذيعوا ما يقدرون
على اذاعته مما اطلعوا عليه وشاهدوه فيهدوا سبيل المؤرخين
الذين يريدون ان يعملوا على تدوين سيرة هذه الحرب . »
ومها تباينت الاراء فيما كان ينبغي على الترك من دخول الحرب
او عدمه والوقوف في جانب الحلفاء ام في جانب الدول الوسطى
وفي اي زمان وعلى اي طريقة فلا ريب ان كل ذلك قد مضى
وان العثمانيين خاضوا غمار الحرب في صف الدول الوسطى وكان

(١) اثبات برأيه : استبد

لم شأن في سير الحرب واطوارها وقد قضي الامر ولا يعني الندم في هذه الدنيا وليس في مقدور الانتقاد ان يطوي ماقدتم بالامس ويجعله كأن لم يكن شيئاً مذكوراً»

« عباً العثمانيون جيشنا عمر ما جاب صحراء التيهه وانغار على القناه و كنت في هذا الجيش مديراً لشعبة الاعمال الحربية ، فهذه الرسالة التي اقدمها بين يدي القراء هي بمقام حجر صغير في بذيان تاريخ الحرب . واذا كان في الاجل فسحة فأسضع رسائل كهذه تبحث عن معارك اخرى كنت في جملة من صلى بناها . »
وحدث المؤلف عن نفسه فقال : انه كان ماجقاً عسكرياً في السفارة العثمانية في باريز لما اعلنت الحرب العامة وتقلب بعد ذلك في وظائف مدير شعبة الاعمال الحربية ورئيس اركان حرب جيش وقائد فيلق

وقد قسم رسالته الى عشرة فصول :

- | | |
|---------------|----------------------------|
| الفصل الاول : | في باريس |
| - الثاني : | في الاسنانة ومنشأ غزوة مصر |
| - الثالث : | في سوريا |
| - الرابع : | في الناهب لغزوة مصر |
| - الخامس : | في الحجاز |

الفصل السادس : من دمشق الى بيت المقدس

السابع : في صحراء البيه

الثامن : الى القنّاة

التاسع : القارة

العاشر : الاباب

نجيب الارمنازي



١ - في باريس

كيف بدأت الحرب العامة - زيارة
جمال باشا لفرنسا - عرض الجيش
الافرنسي في تموز ١٩١٤ - الحرب
في فرنسا - الحرب العامة امر متوقع !
- وطنية الافرنسيين - قضية «كايو»
- مقتل «جوريس» - اعلان النفير
- العام في تركيا - مغادرة باريس -
في الباخرة .

كنت قبل الحرب العامة ملحقا عسكريا في باريس وقد
فقدت هذه الوظيفة وانا في اليمن بعد نجاح التجربة التي قاتلت
الامام يحيى (سنة ٣٢٧) ولكن تعبئة السيد الادريسي ومحاصرة
الايطاليين اليمن جعلتاني امكث هناك الى ان نشبت حرب
البلقان فقاتلت فيها ولذلك لم يتيسر لي هبوط باريس الا في
اواخر سنة ٣٢٩ (١٩١٣)

قضينا في باريس شتاء لا مثال له واتبعناه بربيعها الذي بهر
الانظار حسنا ورونقا واستقبلنا صيف سنة ١٩١٤ الذي جاء
يحمل في طياته ما ندر مثله في تاريخ العالم من الحوادث الجسام .

كنت راجعاً في غمار^(١) الناس من غابة بولونيا البديعة في
التاسع والعشرين من حزيران وانتهيت من جادة بولونيا الى
ميدان الكواكب ، وقد شاهد الذين يعرفون باريس الجواد^(٢)
المحبكة التي اتصل بهذا الميدان وتنتشر منه انتشار شعاعات
النور من النجوم فمدت بصري الى قوس النصر المشيد في هذا
الميدان وكأنه ضم في هالة من انوار الشمس التي كانت تنحدر
عليه في طفولها فما راعني الا تهافت الناس وتهالكهم تهالكا غير
مألوف على اتياع صحف المساء وكانت تذيع مقتل الارشيدوق
فرنسوا وقرينته ، ولم يكن هذا النبأ من الحوادث التي يتوقعها
الناس فاعترت قراء الصحف هزة خوف وعلت اسار يرشم سخابة
سوداء وكان سكان باريس العائدين من نزهة مؤقتة لمحوا في
خفايا الغيب شبح خطر قريب . . . وكان تلك المدينة التي بلغت
اهناً عيش وارغده في ايام السلم الطوال ، قد خامر اهلهما ما خامر
ذلك الملك الاشوري (بانتازار) لما كان غارقاً في طيبات العيش
الغريز اذ لاح له سطور من نار تنبؤه بسوء المنقلب ، فابتدرتهم
الخشية من مصيبة دامية هائلة اكفهرت لها وجوههم ولكن

(١) غمار الناس : جماعتهم ولقيهم

(٢) الجواد : جمع جادة وهي معظم الطريق

مضى كل واحد في سبيله وامسك عن اعمال الفكرة في الحادثة
يحاول ان يتشاغل عن التحدث بمخاوفها ويتجنب تعجبل الآلام
قبل وقوعها .

ثم جاء اليوم الثاني فهدأت قليلا حوادث الصحف كأن
النار التي تريد ان تلتهم العالم بأسره توارت هنيئة من الزمن حتى
تستمر بعتة اي استعمار . ولقد فطر الناس على التفاؤل الذي لم
يعتم ان اثر اثره في النفوس فعاد الباريسيون الى سياحات الصيف
يتنعمون بلذائذ الموسم ومسراته .

وقد هبط باريس قبل اسبوع صديق لي من اركان
الحرب وحل في منزل لطيف يحاذي منزلي في جوار « الشانزليزه »
وكنا نجعل^(١) قدام الرأي وتبجاذب اطراف الحديث في الشؤون
العامة فذكر لي ذات يوم ان قائدا من كبار قادتنا قال له
« لا بد ان تشب نار حرب عامة قبل انقضاء خمس سنين »
وبرهن على ذلك بما رآه من اضطراب الاحوال السياسية الاوربية
وتعقد مسائلها تعقداً يستحيل حله بغير الحسام . وكان صاحبي
يرى ان الحرب على وشك الاضطرام وعلى حكومتنا ان تعجل
باعلان النفير العام على شريطة ان تحتفظ بجيادها .

(١) الاجالة : الادارة

وكان يرى ايضا ان كل فريق من المتحاربين يخرج من الحرب - غالباً كان او مغلوباً - وقد بلغ منه الاعياء فلا يستطيع ان يدخل في نضال مع الجيش العثماني الوادع^(١) ، وبذلك نستطيع ان نصور كل ما نمأسكه ونرعاه .

اما انا فاعترف اني كنت اميل الى التفاؤل وقد جازمت بامتناع نشوب الحرب العامة لانها ستنزل بالغالبيين ، فضلا عن المغلوبين ، من الحسائر ما لا يدع سبيلا لاقدام احد على اطلاق الحرب من عقالها . وما زلت ارى انه كان في قدرة اوربا ان تفتادى من وقوع الحرب ايما طويالا ، وكان بوسعها اطالة امد السلم وذلك شأن المريض الذي اشفى^(٢) على الهلاك ولا بدله من عملية جراحية فانه يستطيع ان يعيش عمرا طويلا بتعاطي الادوية المؤقتة ، وارجاء العملية الحاسمة .

وفي غضون هذه الحوادث زار جمال باشا وزير البحرية فرنسا وكانوا يستقبلونه حيثما حل ورحل استقبال الامراء ولقد صادف في المحافل الرسمية - وغير الرسمية - وفي الصحف والاندية ومظاهر الآراء العامة ، من التبجيل والحفاوة والتناهي في المودة وفرط الاكرام ما كاد يمسح على خواطر الاسى التي ابتقتها

(١) الوادع : الساكن (٢) اشفى عليه : اشرف

الحرب البلقانية حينما من الدهر وبسحب عليها ذيل النسيان .
وهذه المظاهر التي لقيها احد وزرائنا تشير في النفوس اقصى
العواطف وابعد الاماني . وقد كنت اصحبه في بعض زياراته
الرسمية بصفتي ملحقا عسكريا فقال لي بعد زيارة مصنع الطائرات
ونحن نذكر حادثة البوسنة : ستري ما يكون ! ولما كنا في فلسطين
ذكر لي انه لما قال هذه الكلمة لم تكن عقدت المعاهدة بيننا وبين
الالمان . وان كانت المانيا تبسط الوعود لفتيان الترك وتمنيهم
الاماني وتسألهم بعض التكاليف الا انهم لم يبتوا حينئذ قرارهم وما
زالت تعترضهم الشبهات وقد استطلع جمال باشا رأى الفرنسيين
ووعدهم وعدا حسنا بقوله « اذا ضمنت فرنسا سلامة تركيا وامانها
من مطامع الروس ومطامعهم فستكون تركيا قريبة منها » فاجابته
وزارة الخارجية ان فرنسا لا تدخل في عهد كهذا ما لم تصارح
حليفها روسيا به وتجدها راضية عنه
ولما عاد جمال الى الآستانة وجد المفاوضات خبطت بعده
خطوات واسعة وقد اثرت سياحته على الالمان وجعلتهم يميلون
على زيادة التقرب من الترك والاسراع بذلك فالتحق جمال باشا
بزملاته وشاركهم في الامر .
وقال جمال باشا انه لم يطلع على هذه المعاهدة الا شخص

او شخصان ، فلم تعرف الى يوم دخولنا الحرب . وقد وصفها
احد الساسة الاجانب بانها السر الوحيد الذي كتم في الباب العالي
عرض الجيش الافرنسي في ١٤ من تموز تلك السنة بجاء
على غاية ما يكون من الرونق والبهاء وقد راقت السماء في ذلك
اليوم ورق الهواء وهضى رئيس الجمهورية قبل العرض يرمق^(١)
الجيش ويطلع كتائبه ومشى على اثره المحققون العسكريون اربع
اربع ممتطين صهوات الجياد التي ارسلتها مدرسة اركان الحرب
وحضر هذا العرض سرب من الطيارات ، فهتف الفرنسيون
لجيشهم هتافا عاليا وراحوا نشاوى الحماسة والاعجاب وثارت فيهم
تأثرة العواطف التي يجدر بها ذلك المشهد .

اما الجيش الافرنسي فقد تقدم نقدا جليلا بعد سنة ١٨٧٠
و ٨٧١ فاحسنت القيام جمعية الدفاع الوطني بما عهد اليها
به ، وقد اخطأ صواب الرأي الذين كانوا يظنون ان فرنسا
سائرة الى الفناء بما تمكن فيها من مبادئ مقاومة العسكرية
والاختلافات السياسية والمنازعات الحزبية وخفة المشرب في
الآداب والعادات وامثال ذلك ولم يحيطوا خبراً بكنونات
الامور ودقائق اسرارها . وما كان تأثير تلك الاسباب

(١) ر مقه : لحظه لحظا خفيفا

في وطنية الافرنسيين ووحدة جيشهم واعتماد نظامهم الاثري
ظاهرا بعيدا عن الحقيقة ولم يكن عسيرا على الذين لا يقفون
بارآتهم عند الظواهر بل ينفذون الى الخفايا ان يدركوا ما في
الامة الفرنسية من مقومات الحياة وعظم الشأن

وما رأيت في فرنسا شيئا اجل مكانة في نفسي واكبر فائدة
لي من معرفة معنى الحزبية الذي يتلقونه ويفهمونه فيها جيدا، ولا
يمكن أن تالف مدارك الشرقي هذا المعنى وتسكن اليه . .

استرعى بصري ذات يوم اعلانات على جدر نظارة الحربية
تقول « فلتسقط الجمهورية ١ » وهي بيانات الملكيين الذين يبشون
دعوتهم ويقولون فيها ان الجمهورية الثالثة انزلت البلاد الافرنسية
الى الدرك الاسفل ولا يمكن انقاذها الا بارجاع الأسرة المالكة
التي خلدت لها الشرف الباذخ والتاريخ الزاهر . . واشباه ذلك
بعبارات تلتهب التهاوبا وقد حضوا الناس على انتخاب اشيع
الملكيين بعد ان لم يتركوا وصمة ولا عارا الا الصقوهما
بالحكومة الحاضرة

ومن اشد بواعث العجب انه مضت ايام على هذه المناشير
ولم تمس باذى ، ولقد كانت شرطة الحكومة وحفظة الامن
يجرسونها ويجهدون في صيانتها .

وهم يفهمون من الحرية ما يفهمون من العدل والقانون .
وقد عرفتني هذه الحرب ما لم اكن اعرفه في بلادى من
البون الشاسع بينها وبين فرنسا في معرفة معاني العدل والقانون
وخصوصا من حيث اجراؤهما ونفاذهما .

وما اعظم الفرق بين فرنسا التي قررت في بلادها
على اثر دعوى « دريفوس » انه لا يجوز ان يساب انسان حقه في
سبيل منفعة الحكومة وبين الشرق الذي اخطأ كثيرا في تأويل
قاعدة استباحة الضرر الخاص في سبيل النفع العام ، واساء تطبيقها
في كل صحيفة من صحائف التاريخ !

ارجع الى عرض الجيش في ١٤ تموز فاقول : كان بجاني
يومئذ الملحق العسكري الالماني فالتفت الي قائلا : « ان ابي عرض
الجيش الالماني الفاتح في هذا المكان منذ خمسين سنة تقريبا وتلك
هي الذكرى التي تعرض الان في خاطري » وكنت احذر ان
يسمع ضابط افرنسي هذا الحديث .

ذهب يوم ١٤ تموز ويظنه الناظر اليه كسائر الايام الان
الذي يتغلغل في احشاء الحقائق يستوقف بصره حادثتان بسيطتان
وهما ترك الزعيم^(١) الكونت اغنايف الملحق العسكري الروسي

(١) الزعيم : لقب اطلق على الميرالاي

ومساعدته مساحة العرض لحل رموز برقية ، واقامة مأدبة رسمية في مساء ١٤ تموز لم يحضرها من الملحقين العسكريين غير ملحق الروس والانكليز والبلجيكي .

ان الملحق العسكري الروسي هذا هو نجل الجنرال اغنايف سفير الآستانة المعروف ايام الساطان عبد العزيز وهو شاب بهي الطلعة ذكي الفؤاد شريف المتمد^(١) جليل المكانة في باريس ، تجرئ في اعطافه خيلاء الفخر ولا تبرح خاطره ذكرى انكسار امته في حرب اليابان وقد قال لي ذات مرة بدون مبالاة مشيراً للسفير الياباني : « انظر اليه انه فلاح ! »

لقد دعاني الكونت السالف الذكر الى تناول طعام الغداء ذات يوم في منزله الانيق في جوار « شان دو مارس » ففاجأته مفاجأة طبيعية عن موقف دولته في هذه السنة وهل هي مصممة على اعلان النفير العام او مفكرة فيه ، فكان جوابه بعد ان حقق النظر في عيني هنيهة من الزمن : « لا . »

ولا ريب انه ليس مما يتوقع ان يفضي ملحق عسكري بحقيقة الامر اذا كان في النية اجراء ذلك ولكن كفاي منه ما رأيت من نظره الي غير مختار نظرة ذات معنى .

(١) المتمد « ككتف » : الخالص الاصل

توالت الحوادث سراعا في اخريات شهر تموز وقد سألت
الزعيم (تاردي) معاون مدير الشعبة الثانية في اركان الحرب
الافرنسية عن رأيه في الانباء الرائعة وتعاقب الحوادث الخفية
فقال لي كفيلاسوف بعيد النظر رابط الجأش : « لا تخف فلن
يحدث شيء من ذلك » . نعم لقد كان الزعيم الارب المهدب
متفائلا مثلي .

وفي اثناء ذلك صادفت ايضا ملحق النمسا العسكري فقال
لي وقد اشار بيده كمن ينتضي خنجراً : « اذا اعترضتنا روسيا فنحن
حاضرون لمنزلتها وستتبعنا تركيا بعد ذلك » وكان اكثر وقوفا مني
على سير الحوادث .

ثم بدأت الحرب المكتوبة وناجزت المانيا فرنسا وقد بذت
هذه ما تستطيعه لاجتناب الحرب فلم تغلح . ولما اعلنت الحرب
استقبلتها بحكمة واناة .

تهياً لي ان اسائر كلما اشتمت عليه عاصمة الافرنسـيين من
خفقان القلوب واضطراب الجوانح ومشيت مع ذلك يوماً بيوم
لاني لم ابرح باريس في تلك الازمة التي تقدمت اعلان الحرب
وجرت بعده .

لأنستطيع امة ان تكون في مدرجة هذه الخطوب اكثر اناة

وتوؤدة ولم يكن الشعب الا فرنسي بالراغب في القتال ، ولكن لما وجد ان القتال لا بد منه نئاسى كل خلاف وشقاق ونهد^(١) الى ميادين الحرب بقلب واحد وجسم واحد ولم يسعنا امثال ماسمع منه سنة ١٨٧٠ من الاسراف في التنادي : الى برلين ! الى برلين ! لقد بلغت مني هذه السكينة كل ما تبلغه من شعور وعاطفة ففي إبان هذه الحوادث كان اهتمام الراي العام وعنايته بمجادثين : الواحدة منهما محاكمة قرينة (كايو) والثانية مقتل (جوريس) وقد قضي امرهاتين الحادثين من غير ان يستفحل خطرهما بسبب المهالك التي اصبت البلاد في عرض منها ، ولو لم تكونا في هذا الزمان لكان شأنهما شأن حادثة « دريفوس » التي اثارت من الاختلاف والجدل ما هدد البلاد بالاختار

وقد ختم (المسيو لابوري) المحامي الشهير دفاعه في قضية قرينة (كايو) بتبنيه لجنة المحكمين وتوجيه نظرها الى ما ينبغي من نبذ كل خلاف داخلي وجمع الكلمة والنفر الى ميادين القتال للذود عن حياض الوطن الذي اصبح العدو على ابوابه

ولقد اثار مقتل « جوريس » ثائرة العمال وحرك غضبهم ولكن قادة العمال انفسهم اشفقوا ان يحدث ما يثلم^(٢) الانفاق

(١) نهد لعدوه : صمد له ونهض (٢) الثلثة : الخلل في الحائط وغيره

المقدس الذي نادى به الاحزاب جمعا . فاذا عوا ببياناتهم المختلفة
قبل ان يوارى جوريس في الحفرة وحضوا العمال على الهدوء
والسكينة في ذلك الزمن الذي لم يكن زمن نار وانتقام
وكان ابلغ اية في هذا البيان قولهم : انهم قتلوا جوريس اما
انتم فلن تقتلوا الوطن !

ولما كنت اعتقد ان بلادنا تعمل على صيانة حياها في هذا
الزمن وتحفظ به اخذت احد العدد لمشاهدة الحركة الحربية في
المعسكر الافرنسي وبينما انا كذلك اذ جاءني برقية نقول « انه
اعلن النفي العام فعليكم ان تتوجهوا الى الاستانة مع تلاميذ
المدارس العسكرية »

ولا انسى انني ماكدت اطلع على هذه البرقية حتى سمعت احد
كتاب السفارة يقول : « اما والله لنهلكن » فاسكتته كاتب اخر
وانحى عليه بالملام.

كان لنا في فرنسا ما يربو على خمسة وعشرين ضابطا
وطببيا عسكريا ولم يكن من اليسير العودة معهم الى الاستانة وقد
دب في نفوس الفرنسيين ان اعلان تركيا النفي العام مقدمة
للقوف في صف الدول الوسطى اما انا فكنت مقبلا على تقاؤل
لا التحول عنه ولم اعد النفي العام الا لحماية حياها اذا جد حادث

وكان هذا جوابي للزعيم (اغنائيف) لما سألني عن القصد من اعلان التغير العام عند وداعي اياه فسرته هذا الجواب وقال لي : اذآ لا تريدون ان تهاجموا قفقاسية . ولما ابتدرت الباب ، اسرع فاعطاني معطفي وعصاي كيلا تفوته دقيقة قبل ان يكتب الي (بطرسبورج) بسفري هذا .

رأيت من نظارة الحربية الافرنسية معاملة حسنة في تسيير سفرنا وخصصت لنا مقطورة تسيير بنا الى مرسيليا وقد صحبنا (خالد ضيا بك) وكان حينئذ في باريس وعند مغادرة السفارة اقترب مني مستشارها وقال لي باسم السفير واسمه : « حذار من دخول الحرب وعليك ان توصي الرجال المعلومين بذلك » وزاد في حديثه قائلاً « اذا كنت على هذا الرأي » فنبسبت لحديثه لاني كنت اعتقد ان كلامي سيبلغ ما اريد من النفر المتماضين على ناصية الامة ومقاديرها وقلت اني على هذا الرأي ، وسأفعل ما استطيعه . وقد اعترضتنا في مرسيليا مصاعب وعقبات اذ انه لم يصرح في اوراق سفرنا بمغادرة « مرسيليا » وتمسك واليها بهذا السبب ليمنعنا من السفر ، وقال لابدله من ان يستأذن وزارة الخارجية

وقد بذلنا كل ما تقدر عليه انا وخالد ضيا بك من وسائل

الاقناع فلم تجدنا نفعا ولم يعدل الوالي عن رأيه وقال لنا « اذا
 كنتم على ما تدعون من حب فرنسا هذا الحب فلماذا لا تبقون
 فيها وتقاتلون في صفوفها التي نقاتل في سبيل الحق والحريّة ؟ »
 وكان الموقف السياسي عرضة للتبدل السريع في كل آن
 دع ان الحكومة قد استأجرت اكثر السفن بياض التبعة
 وحشد الجيوش وقد لا نبرح فرنسا فيما بعد اذا لم نبرح مارسيليا
 من ساعتنا هذه . وبيننا نحن في هذه المخاوف عثرنا على طريقة حل
 لم نخطر لنا ببال اذ نصبحنا رجل بالسفر على سفينة اوشكت ان تغادر
 مارسيليا الى (جنوة) ولم يكن من اليسير التوجه الى الاستانة
 منها . فقر الرأي على اننا بعد ان نزل في جنوة ننظر في امرنا
 فركبنا السفينة ومضت بنا تشق عباب الماء محاذية ساحل
 (نيس) الفتان وقد شغلتنا رزية الحرب التي تهردهم العالم بأسره
 عن التلذذ بمشاهد البحر والساحل والكائنات . وما كان هنا
 هذا السفر لولا مدهمة الحرب العامة !

ان (جنوة) مدينة حسنة في ايطاليا ووكيل حكومتنا فيها من
 مواطنينا الارمن وكان قبل ذلك وكيلا لها في افريقيا الجنوبية
 وما زلنا نذكر ما تناقلته الصحف اثناء عمله هذا من مساعيه في
 جمع اعانة مسلمي هذه الاقطار للخط الحجازي وقد شاورناه في

كل امر قبل قيامنا ، وصحت عزيمةنا على المضي الى « برنديزي »
وفيهما نحدد وجهتنا

استبدلنا اوراقا مالية ايطالية بالاوراق المالية الفرنسية
واستبدلنا ذهبنا بتلك وخسرنا بكل منهما عشرة المائة وذلك لاجل
نذاكر السفر وتناولنا طعاما شهييا ومعكرونة لذيذة في بهو فندق
زين بالازهار المختلفة الالوان ومكثنا ننتظر قيام القطار .

ثم صعد بنا بعد ذلك القطار المتسلق الى الجبل المطل على
جنوه وتمتعنا بالترهة فيه فكانت جنوه ومياه بحر الروم تحت
اقدامنا وكما كان يحظى المزمع بسعادة في جنوه لولا نشوب الحرب
وقد اخترقنا في طريقنا الى (برنديزي) شبه جزيرة ايطاليا من
شمالها الغربي الى جنوبها الشرقي وكانت المقطورات حافلة
مكتظة والجو مستواهاجر ^(١) فقضينا بياض نهارنا كله تلفحنا
ودائقه ^(٢) ويزيد كبر بنا فيه غطيظ انيام وتزاحم النساء والرجال
اما (برنديزي) فهي على عظم شأنها في موقعها الجغرافي
مدينة مهحلة ، وكان فيها خلق كثير من الروس والشرقيين
ينتظرون ، وصادف قيام سفينة منها على غير المأمول فلم يتيسر
لنا الا بعد جهد جهيد ان نحرز مكانا فيها .

(١) جمع هاجرة : نصف النهار في الفيظ (٢) جمع وديقه : شدة الحر

ومرت بنا السفينة على كورفو ، بيرا وسلانيك فحينئذ من
بيرا الياسمين الفضي وشاهدنا قصر (اشيليون) ولكن ما في نفوسنا
من الوجع حرمنا التمتع بهذه المجالي الباهرة وعرفنا في سلانيك
ان مدرعتي (غوبن) و (برسلاو) اجتازتا المضيق فوقع هذا النبا
وقعا اليما من نفوس اهل السفينة اجمعين ، واقبل يسائلنا سفير
الروس هل يستطيعون المضي الى بلادهم وخنقت العبرات
نسوة فيهم .

وكان في السفينة المسيو «دوكيرس» سفير الروس في
الاستانة سابقا فملاّت هذه الحوادث نفس ذلك السياسي دهشة
واني لا انسى موقفه ما حييت . ولعله كان يستنبط الاسباب
والنتائج وينظر فيما تكبته ثنايا الغيب ويعمل فكرته في استقبال
الترك هاتين المدرعتين الالمانيتين وفي ميل الترك الى الالمان وما
نتيجة هذا الميل من سد المضائق ودخول تركيا في الحرب .
واذا سدت المضائق اضمحل الجيش الروسي لقلة مالهديه من
الدخائر وتنتهي به احاديث نفسه الى نشوب الثورة وكانه التي
في خلد ما تصير اليه سلطنة الروس من المصاير السيئة .

لقد امعن المسيو «دوكيروس» في فكرته امعانا جعله
بمعزل عن كل شيء حوله وكنت بجانبه اطيل النظر اليه واشاهد

نظراته المتوقدة من وراء النظارة كأنها ترمي الى شيء غير محدود
والياس بالغ منها مبلغه ، اما انا فلم اكن ارى محلا لذلك اليأس
الذي ألم بالسفير كما اني لم اكن اعرف من شؤون بلاده الداخلية
ما يعرفه ولم اكن اجد في دخول المدرعتين الآستانة غير حادثة
من حوادث الصدفة والاتفاق التي لم يتعمد لها . غير اني بعد
ان رأيت ما اصاب روسيا من سد المضائق كشف لي القناع عن
حقيقة المسيو دو كيرس واني اشهد لهذا السياسي انه بعيد الغور ،
دقيق النظر ، حصيف ^(١) الرأي .

كانت تسبح طرادات الانكليز في جوار الدردنيل وقد امر
احدها سفينتنا بالوقوف فوقفت وجاء ضابطان يبحثان فيها فسقط
في يدنا الا انهما اكتفيا بالسؤال عن وجود معدات وذخائر ولم
يتعرضا الى وجود ضابط من الترك .

وفي الخامس عشر من آب وبعد عشرة ايام من تلقي امر
وزارة الحربية كنت في الآستانة ومعى جميع الضباط الذين
كانوا في فرنسا فشهدت كرسي المملكة هائجا مائجا يحن الى
الحرب والقتال .



(١) حصيف : استحك عقله فهو حصيف

٢- في الاستانة

زيارتي لآنور باشا وجمال باشا - الحكومة باجمعها
بيد آنور - آخر اعمالى السياسية - بماذا كان
يعمل الالمان ضباطنا ؟ - ليمان فون ساندرس باشا
« غوبن » و « برصلاو » - عزت باشا - دخول
الحرب - نسف عادية الروس - غليوم وبسمرك .

كان همي منذ دخلت الاستانة ان اعرف العمل الذي
أقلده فعرفت اني أوليت شعبة الاعمال الحربية في الجيش الثاني
الذي يقوده جمال باشا ناظر البحرية وكان مدير شعبة الاستخبارات
فيه (رأفت بك) وقد اصبح زعيماً وُقِد قيادة الدرك العامة .

صادف هذا العمل هوى في نفسي ووقع تقليدي اياه موقع الحيرة
مني لانه عمل ذو شأن اتاني منقاداً بدون عناء ولا رجاء ولم اكن
متميّباً الى حزب ولا لائذا بانسان .

وكان يومئذ في الاستانة معسكر الجيش الاول ومعسكر
الجيش الثاني ، ويقود الجيش الاول (فون ليمان ساندرس باشا)
ويتولى شعبة الاعمال الحربية فيه القائد (عصمت بك) الزعيم
مستشار وزارة الحربية بالامس ورئيس اركان الحرب عند مصطفى
كال باشا اليوم = ومدير شعبة استخباراته القائد كاظم بك (امير

المواءم الآن .

وقد عُرف جمال باشا بأنه رجل سياحي أكثر منه عسكري
فوقع اختيار القيادة العامة عليّ حتى لا يكون هذا الجيش أقل شأنًا
من الجيش الذي يقوده رئيس لجنة الإصلاح العسكري الألمانية
ثم إنه استوقف نظري في الاستانة اذ ذاك شيء أخصه
بالتذكّر وهو انشاء قيادة عامة وما كان ذلك العمل الا خطوة في
سبيل الحرب ومباشرتها ولكن التفاؤل يقضي على المتفائل ان
يتوقع الخير من كل شيء فلا يرى الا ما يجب ان يراه ، ويغالط
نفسه اذا وجد الحقائق بارزة للعيان وكنت على غير قصد مني
أميل الى تفسير الامور وتأويلها كما احب واهوى . فكان يخيل
الي ان الغاية الوحيدة من انشاء قيادة عامة هو ان تكون التدابير
العسكرية التي يديء بها يوم اعلان النفير العام في قبضة واحدة ،
وذلك ضمن لان تسير سيرنا

وكان عليّ بصفة كوفي ملحقاً عسكرياً قادماً من باريس
ان ازور وكيل القائد العام ، فزرته ورأيت هناك (انور بك)
الذي خلفته قبل تسعة اشهر في منزله الصغير في (بشكطاش)
ضابطاً شاباً كريم المهزة^(١) لين الجانب ، رقيق الوجه واضعاً امامه

(١) المهزة : « بالكسر » النشاط والارتياح

صورة (نابوليون بوناپرت) قد اصبح في قصره في « نشانطاش »
نلوح عليه مخايل حاكم قاهر (ديكمتاتور) ففاضت بشاشته
واكفهرت امارير وجهه وقر قراره على ان يفعل ما فعل قيصر .
ربما لا يوجد في العالم رجل كهذا ، تطور هذا التطور
السرير وادرك هذا الشأن الجليل في مثل تلك الايام اليسيرة .
لزم وكيل القائد العام فراشه وكان يشكو الما في رجله ،
فكاشفته حينئذ بكل ما لدي من الآراء فيما يتعلق بالجيش
الافرنسي ، وما شاهدته في باريس اثناء اعلان الحرب و بينت
له انني لم اكن اشك ان اعلان النفير العام في بلادنا ليس الا
تدبير حذر وحيطة لصيانة حياتنا ودرء العوادي عنه وقد اوضحت
ذلك في باريس لوزارة الحربية والضباط الذين يهمهم الامر
وذلك على حساب قيام الحلفاء بتدابير حربية توجه اليها .
فما ارتاح انور باشا لكلامي ولعله وجد فيه اني لم اكن
ارغب بدخول بلادنا الحرب - والحرب اقصى اماني الفتى
العسكري الجري - وفي الحرب كل ما يرجوه من منزلة رفيعة
وشرف باذخ !

وكان انور باشا يرى ان الله خلقه ليجري على يديه بعض
خوارق العادات ولا يخالجه شك في ذلك ويرى ان هذه الحرب

هي افضل وسيلة ينبغي التوصل بها ليلبغ مطامحه وشهواته وينفذ تلك الخوارق التي قدر لها ان تجري على يديه ، وفي الحرب نجيم الحاكم القاهر الشاب وفيها الواجب الذي اعتقد انه انزل عليه بقضاء وقدر . وغاية هذه الحياة عنده هي ان يموت الانسان ميتة مذكورة ولكن قبل ان يموت يجب ان يحمل بروءوس الحراب حملاتٍ عنيفة يقيم بها سوق المنايا ويقعدها وكل شي هين عليه بعد حملات الحراب لان تاريخ العالم لا يكتب الا بروءوسها . وفطرة انور باشا تقضي بان لا يكون غير ذلك قضاء مبرما .

ولقد ابقى حديثي في نفسه اثر لم ينسه مدة الحرب كلها وما هو الامر لابد منه ونتيجة لازمة لما بيننا من الافتراق في الطبائع والتباين الشديد في الآراء ومسالك الحياة .

كانت قيادة الجيش الثاني في المدرسة الحربية فذهبت الى زيارة رئيس اركان حرب هذا الجيش كما توجب الوظيفة وهو الزعيم (فوق فرانكنبرغ) الالماني وكان قبل الحرب رئيس اركان حرب فيلق ، وهو متفرد بين اقرانه بالمضاء وصحة العزيمة . فرأيت في غرفة اركان حرب الجيش مكباً على الخارطة ينظر اركان حرب الاتراك بما تكون عليه حدود تركيا بعد هذه الحرب ، وكان على الخارطة خطوط كثيرة تدل على ان مناظرة

طويلة جرت في هذا الشأن وهذه الحدود تمتد الى شمال القفقاس
وتمر بجوار نهر (الفلغا)^(١) اما مصر فهي داخلة بالحدود بلا خلاف
والمناظرة قائمة حول القريم والتركستان . فسبق الى ظني انهم
يتفككون ولكن مضى رفاقي في حديثهم جادين غير هازلين وكان
ذلك اثر ما اتقنهم اياه رئيس اركان الحرب . منذ اعلان
النفي العام .

ثم سرنا الى حجرة الرئيس فسألني اذا كانت لي معرفة
سابقة بجمال باشا وقال انه لا يرمي في اعماله الا الى غاية واحدة
هي العمل بكل ما اوتي من قوة على اسعاد المملكة العثمانية ورفع
شأنها ، وذكر انه يتوقع ان اكون عوناً له وعضداً . وافضى الي
بعد هذا بما يعن له في انظمة المعسكر الداخليه وبين انه لا يجوز
ان يتصل شيء بقائد الجيش الا عن طريقه ، فلا يجوز لاحد
من ضباط المعسكر ان يراه الا بعد استئذانه ولا يجوز ان يعث
اليه بورقة ما لم يكن قد اطلع عليها وذلك بصفته رئيس اركان
الحرب وقائد المعسكر وهو لا يريد بذلك الا فتئات على القائد
والاستعداد به ولكنه يعتقد انه لا بد لادراك النجاح وبلوغ المنال
من اتباع هذه التواعد والسير عليها .

(١) هو النهر الذي ينبع من جبال الاورال ويفصل قطعة اوربا عن آسيا

ولما كنت قد بلوت هذا الامر وعجمت^(١) عوده وعرفت ما يكون من الاثر الضار في الجيش اذا توطدت اركان الصلات مباشرة بين ضباط فيه وضباط آخرين اسمى رتبة منهم وانفد كلمة وايقنت ان سلامة المعسكر وامنه يتوقفان على ان لا يتعدى الضابط طوره ولا يتصل بغير رئيسه المباشر، شاركت الرئيس مشاركة قلبية وقلت له ان هذه الآراء هي سبيل السلامة الوحيد وانني بصفتي العسكرية سأكون خادمه الامين واضفت الى ذلك انني لم تكن لي مجال غير معرفة بجملة وقد اتصلت به ايام كان في باريس بمقتضى الوظيفة .

زرت جمالا صبيحة اليوم الثاني فرأيت فيه انقباضا وحشمة اكثر من كل وقت رأيته فيه ، وكانه مثل من ذلك الحين بجميا المنزلة الشريفة التي كتب له احرازها وكان يجد جلسه في هذه السكنينة والطاينة ما يجد فلا يفسح له مجال القول بلزوم السلام والحياد ، غير انني بعد ما ذكرت ما اوليته من الشرف بالوظيفة التي قلدها اتيت بمحدث مستشار السفارة في باريس وقلت انني على رأيه « في اجتناب الحرب » . فقال لي جمال وانا على هذا الرأي ولا اري ان نقذف بالمملكة في بحر لحي ليس له قرار

(١) عجم العود : عضه ليعلم صلابته من خوره

قبل ان يكشف القناع عن حقيقة الموقف واني ابذل ما في وسعي
لتأجيل اعلان الحرب ، ولكن يتعين عليّ اذا رأيت روسيا =
عدوتنا اللدودة = عليّ مقربة من الهلاك ان اكون صاحب
الضربة الاخيرة .

اما معنى هذه الكلمات التي تظهر عليها مسحة الحقيقة فهي
ان محافظتنا على الحياد الى آخر الحرب امر قد فرغ منه وقرّ الرأي
عليّ المناضلة في جانب الدول الوسطي الا انهم يفضلون مباشرة
القتال في يوم يقع عليه الاختيار .

لم يف جمال بهذه المنية لان المنى كلها خضعت امزأمر اسبحة
مكينة لانقاس بها عزيمة جمال وارادته فانهم لم يقاقلوا في اسعد
الايام وائمنها بل قاتلوا في يوم عبوس اغبر يوم كانت جيوش الالمان
بقيادة « هندنبورغ » تنحاز الى (بومرانيا) في ساحة الشرق
وكانت هذه الجيوش كذلك خارجة من معركة المارن التي خسرت
بها كل ما ترجوه من دخول باريس ظافرة .

كانت المملكة العثمانية في قبضة الاتحاديين وكان الاتحاديون
في قبضة المركز العام وكان المركز العام في قبضة الحكام الثلاثة
وكان الثلاثة في قبضة انور يسوقهم سوقا عنيفا . اما مقام
السلطنة والقوى التشرعية وحزب الاتحاد والترقي والحكومة

الرسمية والمطبوعات والراي العام فلم تكن الا اشباحا ماثلة
وخيالات مصورة .

وكان جمال باشا بين القابضين على زمام الامور موصوفا
بشيء من الاعتدال فلما وجدته على هذا الراي ادركت انه لم يبق
لي فسحة في الرجاء وكان حديثي معه آخر عمل سياسي تستدعيه
وظيفتي القديمة وهي تنتهي متى نقلت وظيفتي الحديثة في
الجيش وقد صحت عزمي على ان احبس جهودي ومساعي وكل
ما اوتيت من قوة اديبة ومادية على وظيفتي العسكرية ومضيت
في ذلك مدة الحرب كلها .

قضى رجال اركان الحرب الاسابيع التي تقدمت المناجزة
وهم دائبون كل الدأب و باذلون اقصى الطاقة يضيفون الى
وظائفهم اليومية التفتيش والتمرين والقاء المحاضرات واذا اختلسوا
ساعة من عملهم اقبلوا ينظرون في امر الحدود المستقبلية ويعلمون
انفسهم فيها باعالي المنى وكان ضباط الالمان يزورون ظهيرة كل
يوم فون سندرس باشا فيبثونه ما عندهم ويبتهم ما عنده ومن
جملة ما امروا به ان يثيروا عاطفة الحماسة في قلوب ضباط الترك
ويزوا اعطاف الجيش باحاديث الحرب فيعدونه الى خوض غمارها
ومن اوطنية الصادقة قيامهم بهذا الواجب من حيث انهم المان .

وكان رئيس اركان الحرب يعمل الفكرة في امري اذ يراني في
اثناء مناظرات الحدود غير منساق مع رفاقي في التحدث بتلك
الاحلام اللذيذة ، فيعني باقناعي عناية خاصة اكثر من ابي واحد
غيري وقد قال لي ذات مرة وهو يتحدث عن حدود لا اذكرها
في آتيا : « ولماذا لا تكون هذه حدود بلادكم ؟ » وحقا لا ادري
لماذا لا تكون ؟ وما من سبب يدعونا ان لانتمناها !

انها كلمة لا يهون الجواب عليها ! وقد رأينا في هذه الحرب
كثيراً من حجج الالمان ما كان ظاهراً خطله^(١) الا انه لا يسمع المرء
ان يرد عليها ومن جملتها قول رئيس اركان الحرب متمكماً :
« ولماذا لا تكون هذه حدود بلادكم ! » وكان يغابني الخياء لاني
كنت السبب في هذا السؤال .

كان الرئيس يجمع الضباط ساعة في اليوم ويعلمهم مبادئ
اللغة الروسية اذ يمكن ان يتولى الجيش الثاني الاعمال الحربية في
القفقاس ويردد في حديثه ان « غوبن » و « برسلاو » ضمننا
لنا السيادة في البحر الاسود . ومع ذلك ما كانت لتدخل تركيا
الحرب على الاثر وقد احتفل ذات مرة بعرض الاسطول فشهدنا
بجارة (غوبن) و (برسلاو) و اضمين على رؤوسهم القلانس

(١) خطل الرأي : فساد

العثمانية واذا نادوا بالهتاف نادوا بكلمة « هوراه »^(١) وقد قال لي
رئيس اركان الحرب ذات يوم وعيناه مغرورقتان بالدمع :
« اذا كانت تركيا لا تريد ان تقا تل ف نحن نريد ان نذهب الى
بلادنا . انه من السببة والعار ان تكون بلادنا في خطر ويكون
اخواننا في السلاح يناضلون العدو ونحن نرتع في بجبوحه الدعته
والراحة وهو لاء بجارة « غوبن » و « برسلاو » يقولون انهم لم
يقدموا هذه البلاد للهو والمعب ولكنهم قدموها للحرب والقتال .
وقال لي مره اخرى : « نحن نقول لهم اذا كنتم لا تقا تلون
فاذنوا لنا بالعوده الى بلادنا . وهم يسألوننا قائلين كلا اننا سنقاتل
فهونوا عليكم ! »

وذكر لي ان قيصر المانيا ارسل الى (ليمان فون سندر س باشا)
برقيه يقول فيها : (اذهب الى انور باشا بنفسك وبلغه ازكي
تحاياي وقل له ان للقيصر كل الثقة به وان لجنة الاصلاح وبرأسها
فون سندر س باشا رهينه امره وطوع ارادته .)

وحسب انور باشا مجاذبه لهذه العوامل فان قلبه لا يستطيع
عليها صبرا اكثر مما صبر ، ولم تكن تخامره ربيه باب الالمان
يظفرون باعدائهم في هذه الحرب وماذا تستفيد

(٢) كلمه في الالمانيه تقابل « ليحي » في العربية

تركيا اذا احرزت المانيا الفوز الحاسم بسيفها وعلى الذي يريد ان
يحتمي ثمر الوقائع يانعا ان يكون له حظ كبير في ادراك النصر
ولذلك يتحتم دخول الحرب في اجل قريب .

وكان انور باشا يقول بعد التمارين الحربية التي كانت تجري
مرارا في الاسبوع وهو في موقف الناقد كما هي العادة المتبعة :
« ان الجيش العثماني سيغسل عنه العار الذي اورثته اياه حرب
البلقان ! » فكان يضرب بهذا القول على اشجى وتر في قلوب
الضباط العثمانيين ، ولم يبق لدخول الحرب الا تعيين اليوم
او الاسبوع .

احببت ان ارى « عزت باشا » ^(١) واستطلع رأيه في هذا
الشأن فزرته وسألته عن افضل طريقة يتعين على البلاد سلوكها
فاجابني بدون توقف : « عليها ان تسلك خطة الحياد المحض »
وما اوعر هذه الطريق في تلك الايام ! لقد كانت البلاد
تهوي هويها في السير الى الحرب ولم يكن لها ركن تاوى اليه . وكان
هذا الرجل يعرف سبيل السلامة ولكن لم يكن يملك من الحول
والقوة ما يؤيد به رأيه .

كما كنت افكر في الوطن الحبيب وجده العاثر سواء في

(١) هو قائد الحملة التي حاربت الالامام يحيى في اليمن سنة ٣٢٧

غضون الحرب او قبلها او بعدها كان يرمضني قبل كل شيء ان
تمر بنا هذه الاحداث وعزت باشا على قيد الحياة .
ان عزت باشا رأى كل شيء وعرف كل شيء والبلاد
العثمانية لم تنكره ولم تجمل عظيم قدره وجايل امره ، وليس له ان
يدعي ما ادعاه (سببيون) من انكار وطنه اياه لان عزت باشا
ُدعي من منفاه بعد الانقلاب وقلد رئاسة اركان الحرب العامة
ونقلب في السنين العشرة الاخيرة في مناصب مختلفة من جملتها
وزارة الحربية والقيادة العامة والصدارة العظمى ولكنه كان
يخرج من جميع هذه الوظائف بدون ان يخاف فيها الاثر الذي
يجمل به ويناسب مقدرته واستعداده ، وكما اجلت رأني في
استكناه سر هذه المعضلة كنت اذكر كلمة (اطلمت) وأجدها
الحل الوحيد :

في اثناء حرب البلقان واضمحلال جمعية الاتحاد والترقي
وقبيل حادثة الباب العالي سألت طاعت باشا ماذا يراه فقال لي :
« نحن نريد ان نذهب الى ادرنه ونحن نبحث عن الرجل الذي
يسير بنا ، ذهبنا الى ناظم باشا وقتلنا له ان الاتحاديين بأسرهم قيد
او امره اذا قرر مهاجمة ادرنه فأبى ذلك ، ثم ذهبنا الى محمود
شوكت باشا وقتلنا له عين المقال واضفنا اليه اننا نشعل ثورة

ونقلده على اثرها زمام المملكة ، فكان جوابه : انني لا ارجو ان
نتمكن من الدفاع في (شطالجة) فكيف بالهجوم على ادرنة ؟ ثم
ذهبنا الى عزت باشا فحدثناه في الموضوع فالتقى علينا حسابا يمين
ما عند العثمانيين من التقابل والمدافع وسائر معدات الحرب
والكفاح وقال ان رجاء الفوز لا يزيد عن ٣٠ او ٤٠ بالمئة وليس
من رأيي الاعتماد على هذا الرجاء الضعيف والمغامرة بمستقبل
الجيش والبلاد .

وهنا قال لي طلعت : « لو ان عزت باشا استمد من روح
(نابوليون) ٣٠ او ٤٠ في المئة لسمت آية النصر الى ٨٠ في المئة »
فأجبته غير مختار : لو كان ذلك كذلك لكانتم غير احياء
ووردتم حياض المنايا التي وردها قبلكم اعضاء (الكونفانسيون)
فاشكروا الله كثيرا لان عزت باشا لم يكن طامحا مثل نابوليون
فقال : ليته كان !

اجل لو ان عزت باشا جمع الى سداد رأيه وبعد نظره
وسعة صدره الحرص على المنازل والرتب ، ربما كان في الاتراك
بمقام « فنز بلوس » في اليونان وخرج الترك من هذه الحرب
العظمى باحدى الخصلتين : اما الحظ الهنيء ، واما الضرر اليسير .
كان معسكر الجيش في مضارب فوق طراية على ربوة

مشرفة على المضيق في أبان معركة المارن فلم يكن رئيس اركان الحرب ليصدق بحال من الاحوال ان الجيش الالمانى خسِر المعركة وتقهقر الى الوراء وكان يدعي ان لالمانيا جيشا لم يعرف عنه شيء بعد يعمل في طي الخفاء على الاحاطة بباريس من الشمال والغرب احاطة السوار بالمعصم فلا يعبأ بذلك التراجع الموقت الذي لم يقصد منه غير اكتساب الزمن ولم يكن يأبى ان يساجلنا في هذا الموضوع ، ولم يكن يأبى ان يسجل ما قاله على ان يُقرأ بعد ايام ثلاثة فتبين صحة نظره واذا لم تجر الحوادث على حسب ما ادعى وارتابى فانه يعد نفسه ضابطا ساقطا بين ضباط اركان الحرب . ولم يعدل رئيس اركان حربنا عن هذا الرأي .

ولقد اخطأ الالمان خطأ عظيما في حشد الجيش بنقلهم قسما كبيرا من قواهم في آب سنة ١٩١٤ من الساحة الغربية الى الساحة الشرقية فكان جزاؤهم على هذا الخطأ ما اصابهم من ضياع معركة « المارن » التي كانت مقدمة لضياع الحرب كلها ، وفي هذه الاحيان دخلت بلادنا الحرب كما هو معلوم من ابتداء امرها .

وبعد مضي ايام على ذلك خطب قائد الجيش بفرسان الضباط عند انتهاء تمارين عسكرية في جوار « اياستفانوس »

حيث عادية^(١) الروس منصوبة فقال : « اخطأ بعض الجبناء فيما
نوهموه من ان عمل اسطولنا في البحر الاسود كان برأي الاميرال
الالمانى وحده ليحعل الحكومة العثمانية امام حادث مقضي ، الا
انه اجري بقدر وامر سبق ولم يكن قادة الالمان وامراؤهم في
البر والبحر الاعمالا عند الحكومة العثمانية ولم يكن الرجال الذين
عهد اليهم بمقايد الامة ومقاديرها في قبضة احد وتحت تأثير
سلطان ما وهم احرار في آرائهم واعمالهم ، وقد اختاروا خوض
معامع الحرب كيلا يعيش الاتراك في ذلة فاما ان يذودوا بالسيف
عن حوض عزهم ويقاتلوا دون استقلالهم وحقهم حتى يبلغوا ما
يؤملون واما ان يموتوا ميتة كريمة . »

وعلى الاثر امرت كتيبة الاستيكام بنسف تلك العادية
فنسفها نسفا .

فأما وقد اصبحت الحرب امرا مقضيا وكان شأنها الذي
صارت اليه كما اسلفنا وجب علينا كما قال لي احد اصدقائي
مواجهة الحقائق واستنفاد القوى حتى نخرج منها ظافرين .
لقد كلف القياصرة الشعوب التي عبدتهم ثمنا غاليا . فلا
ينبغي ان يقع من الامة العثمانية موقع التعجب ذلك الثمن الغالي

(١) العادية : بناء او ركز نصب تذكارا لواقعة شهيرة وغيرها

الذي سامها « انور » اياه ، فهي التي ولته وزارة حربها وقيادة جيشها قبل ان ينيف على ثلاث وثلاثين سنة ، واذا كان يسيراً فقد الحوادث وتمحيصها بعد انقضاءها فمن الظلم ان لا ينظر اليها وهي تجري بدقة وامعان .

ان استبداد ثلاثين سنة فت في عضد الجيش العثماني واوفى به على البوار ، وقد نهض هذا الجيش في (ماكدونيا) وقام بثورة ١٠ تموز ودخل في معمعان السياسة بعد هذه الثورة فانتشرت اموره واستمرت الفوضى فيه وفي ابان هذه الفوضى نشبت حرب البلقان وذهبت بما ذهبت به .

كان من الواجب « الذي لامناص منه » انقاذ الجيش من الفوضى بعد انتهاء الحرب البلقانية وتجديد شبابه ولا يستطيع القيام بهذه المهمة الشاقة الا رجل عزيز الجانب منيعه وكان انور باشا ذلك الرجل ، وكان المكواة لداء الفوضى المستفحل . فقبض على ازمة الجيش قبضة الحاكم القاهر وانتزعه من الشيوخ الواهين والشبان الاغرار فكفر الجيش عن سيئاته الماضية كلها واشتد كاهله في بضعة اشهر وساد فيه الضبط والنظام ولم يعد يستطيع اذا نودي به الى الحرب الا ان يفدي نفسه و يبذل دمه . وارزاء الماضي القريب تدعو الى اجتناب كل خلاف وتحذر من دخول

معامع السياسة مرة ثانية .

بقي الجيش العثماني اربع سنين يناضل احوال الطبيعة وشدايدها
ويقاتل خصوما اقوياء اكثر منه عددا وعدة وهو خاوي الفؤاد
عاري الجسد خائر القوى . فلقاتل ان يقول ان التاريخ لم
يشهد مثل ذلك .

دخلنا الحرب في عيد الاضحى فسألت عزت باشا اذا كان
يرجى منا الفوز في هذا الحرب فقال ان رجاء الفوز تابع للنسبة
القوة الى المقاومة ومجموع قوى المانيا والنمسا اضعف من روسيا
وفرنسا وانكثرا فهذه النسبة ليست في جانب الالمان . ويلوح لي
ايضا ان الجيش الالمانى جيش عظيم ولكن لم يتيسر له القائد الكفء
فاذا كانت هذه هي النسبة في مبتدأ الحرب فما عسى ان
يقال اذا اضفنا اليها ايطاليا ورومانيا واميركا ؟ فيا بؤس تركيا
ماذا خبأ لها جدها العائر ؟!

لا ينكر على الجيش الالمانى عظم خطره وعلو مكائده .
ولكن هل كان القيصر غليوم قائده الاكبر والجنرال « مولتكه »
رئيس اركان حرب به مضطلمين باعبائه ؟ وهل يستطيع انسان ان يكون
صاحب السلطان في مملكة كبرى واخصائيا في الزمن نفسه بتعبئة
جيش عرمرم مؤلف من ملاين فيقوده قيادة حسنة وينفر به

عن مواقف الزلل ومواضع الخطل .
ان حشد الجيش فن كسائر الفنون وصناعة كسائر
الصناعات فعلى من يريد ان يمتاز به ان يقتصر فى حياته عليه
ويكون فى مواهبه الفطرية اهلاله .
وكان القيصر يدعى فوق ذلك ان له معرفة بالخطابة
والآثار العتيقة والعمارة والموسيقى على ان القرن العشرين هو قرن
تقاسم الاعمال والمساعي ، قرن الاختصاص والتحرر فلا يستطيع
انسان وان كان هو القيصر الالماني ان يدعى بانه عارف
باشياء كثيرة .

ان القيصر من الفريق الذي ينعتة الافرنسيون بانه يلم
بكل شيء ولا يجيد شيئا ولكنه ليس كاحد من الناس بل هو
شديد الخطر فى تعاطيه كل شيء .

فى سنة ١٨٧٠ كان غليوم الاول قائدا عاما وكان الجنرال
« مولتكة » رئيس اركان حرب به وداهية عصره . ومن اعظم
مزايا غليوم الاول انه كان يختار الرجال الافذاذ الذين يبخل الدهر
بمثلهم كالكونت « بسمارك » والجنرال « رونه » والجنرال « مولتكة »
اما الجنرال مولتكة رئيس اركان الحرب فى سنة ١٩١٤
لم يكن له من (مولتكة الكبير) الا اسمه ، دع ان سنة ١٨٧٠ غير

سنة ١٩١٤ والبون بينهما شامع .
وقد كنت سمعت كلمة عن لسان القيصر لما قلد الجنرال
مولتكه رثاآسة اركان الحرب يرد بها على المعارضين في تعيينه
والمتمرين بكفائته قبل الحرب بسنين وهي : « اني رئيس اركان
الحرب في الحرب واما في السلم فحسبي منه الاسم » وفي هذه الكلمة
كفاية في تعرف العجب الذي تنطوي عليه جوانحه والانانية
المفرطة التي يحملها في قلبه .

وما اعظم التباين بين غليوم الاول الذي كان يجمل اعظم
دهره وبهره بذلك على عظمته الحقيقية وبين سليل آل
« هوهنزولرن » الاخير الذي كان يقصى الاكفاء عن منازل الحكم !
وهذا التباين هو الذي حمل العالم باسمه فيما ارى على مقاتلة
الدول الوسطى وكان السبب الفرد في اضمحلال جيوشها
وغروب نجومها .

الا انه درس موجه لاصحاب السلطان الذين يستوحشون
من الاكفاء البارعين .

وهنا انقل بعض ما دونه بسمارك في خواطره :
« كان القيصر الشاب قد اذاع اذاعة عامة على خلاف رأي
مستشاره بسمارك فقال لرجل ياتمه على السر :

« لقد كتب بقلمه هذه الاذاعة وهو يثق بنفسه ثقة عمياء
ولكن عقله لا يدرك حقيقة امره ولا تثمر هذه الاذاعة الا الشر،
وقد افضيت له برأى ولكنني على جانب عظيم من الكبرياء
لا يرى معها ان يتنازل الى سماعه »

ولما بحث البرنس بسمارك عن استقالته قال : « صححت

عزيمتي على الاستقالة وكنت احسب انه يشكر لي صنيعتي اذا
بقيت معه سنين اخرى ولكن علمت انه يرغب من صميم فؤاده
ان يتخلص مني باقرب آن فيسوس البلاد برأيه وحده ولا
يشاركه احد بالشرف والمكانة في تدبير المملكة »

« لقد مناني وبرم بي واخذ يرعي يبصره الى عبد اكثر طواعية
مني . ومعاذ الله ان اسجد له او ارضى بان اكون كلبا يتبعه . انه
يريد ان يخاصم روسيا التي تمكنت من التقرب اليها »

« سممت دسائس القصر والوف الرذائل وتقارير العيون
والجواسيس ولذلك لم ارحم من الاستعفاء ولا معدلا عن
صيانة نفسي من مواقف الضعة والهوان امام شاب غر يكافئني
على سابق اعماله وجهودي بمثل هذه المكافئة . »

« تم استعفائي على غير رغبة مني وقد اراد القيصر ان يخفي
حقيقة الامر عن عيون الرأي العام فذهب اليه رجل تخرج على

يديّ وقال انني مصاب بالمورفين فاستدعى القيصر الشاب طبيبي
وسأله ان يعطيه نقريرا يعزّي فيه استعفائي الى اسباب صحّية
فأبى الطبيب ذلك !

« يا لها من مثلبة اخلاقية ، انهم لم يحجموا عن اجتراح اي
سبيطة في سبيل مرضاته » .

واني غني عن التقفية على هذه الكلمات

- منسا غزوة مصر -

لم تثبت الحوادث مقدرة اسطولنا على ادراك السيادة في
البحر الاسود فاغفلت الفكرة القائلة بنزول الجيش الثاني في
ساحل القفقاس واخذت النفوس تتمايل شيئا فشيئا الى غزوة
مصر بعد ان وجدنا ذلك الباب مغلقا

ان في حديث غزوة مصر شاعرية جذابة وخيالا بديعا .
فمن الذي استخرج هذا الخيال واثار هذا الدفين ؟ والغالب انه من
بنات فكر الزعيم كريس بك وقد اوحى اليه به من المعسكر الالمانى
يقولون ان الشرق موطن الشعر والخيال ولا اظن شرقيا
عرضت له هذه السانحة .

لم يكن للدول الوسطى اتصال ببريطانيا الا من جهة مصر
وعلاوة على هذا فان قناة السويس كانت سبيل الجيوش التي

تقلها بريطانيا العظمى من مستعمراتها في آسيا ووقيانوسيا فاذا
تعذر فتح مصر لم يكن متعذرا اعاقه هذه الجيوش وابقاؤها اياما
طوالا في قناة السويس واقصاؤها عن ساحات القتال الاوربية
التي فيها تبلغ الحرب اجلها

هذا هو وجه الغزوة من طريقة فن التعبئة ولكن لم يشر
احد اليه ولم تنشره البلاغات والبيانات التي كانت تداع كل يوم
بغير الفتح الذي سلب لب الامة واستهوى فؤادها وسحرها بمنظر
الاهرام الخلابه وحل منها محلا غلب على كل شيء .

وكان ذكي باشا الحلبي قائد الجيش الرابع ولي هذا الامر
بادي الرأي وقد عارض فيه بجرأة عظيمة واثبت تعذر الاتيان
به مستندا على حسابات مختلفة وبراهين ساطعة .

وقد اصاب كبد الحقيقة فان الجيش الذي يريد ان يتوجه
الى القناة يحتاج الى سكة حديدية اولها عند محطة (سان سباستيا)
التي لم يتم انشاؤها وبينها وبين نابلس مسيرة ١١ كيلومترا ،
وبينها وبين قناة السويس مسيرة ٥٠٠ كيلومتر ومن هذه
المسافة ١٠٠ كيلومتر كلها في صحراء التيه الجرداء القاحلة التي
لا يجد فيها المرء ما يقوته ويبل ظمأه ، وكذلك فان البقاع الممتدة
بين (سان سباستيا) وبين بئر السبع تفتقر الى غيرها في معيشتها

ايام السلم فضلا عن ايام الحرب .

ومن جملة المصاعب نقل ارزاق الجيش وموئنه ومعدانه مسافة
خمسماية كيلومترو حمل المياه للمقاتلة والدواب على ظهور الجمال
مدة ايام واذا ذلت كل هذه العقبات فان الجيش يصل الى قناة
السويس ويقف امام العدد الانكليزية وجها لوجه .

كل ما ينفق في هذا السبيل من جهد وعزيمة لا يؤدى الا
الى نتيجة واحدة وهي ان يدخل الجيش العثماني في ساحة مرمى
القنابل الانكليزية حيث اقيمت المعاقل المتينة على عدوة القناة
الثانية بيد ان كل برهان وكل حساب وكل حكمة كان يذهب
ضياعا وقد حرم البحث في مجال الحقائق والممكنات وقرر القيام
بغزوة مصر كيفما كان الرأي وارسل ذكي باشا الذي اعمل فكرته
واستخرج حسابه الى المعسكر الالماني بصفة مندوب عسكري
عثماني وقلد جمال باشا (الصغير) قائد الفيلق الثامن قيادة الحملة
وولي رئاسة ار كان حرب به فون كريس مخترع هذه الفكرة وعين
الزعيم علي فواد بك (امير اللواء الآف) رئيس ار كان حرب
الفيلق قائد للفرقة الخامسة والعشرين التي هي اساس الحملة ،
وتولى جمال باشا قيادة الجيش الرابع . وقد هز هذا النبأ مقر
الجيش هزة لا توصف فرغب كل انسان ان يذهب معه ويقذف

بنفسه في صحراء التيه ومجاهلها . وكان ملك الجيش الرابع
ناقصا فأتم بضباط من مقر الجيش الثاني وصحب جمالا بعض
ضباط اركان الحرب . اما الذين خلفوا في الآستانة فقد ذهب
بهم اليأس وتولاهم القنوط .

واللهياج سلطان كبير على القلوب تضطرم فيه العواطف
وتحكم بالعقل وتغلب عليه . وغزوة مصر من زناد ذلك الهياج
القادحة . وكان علينا ان نقنع انفسنا ونتزع الشبهات من
صدورنا حتى نتولى ائناغ غيرنا وكل شبهة تلم بنا او شك نهوي
اليه هو الكفر او من دونه الكفر بالنظر الى مسا في قلوبنا من
السوانح العلوية الصافية فقام مقام العلم والرأي والفن : العقيدة
والايمان والرجاء .

سار بعد ذلك معسكر الجيش الرابع الجديد في اخر يات
خريف رائق بهيج من محطة حيدر باشا وضلوعه تكاد تنخي على
ذلك الايمان الراسخ وجاء فتبعه مئات الوطنيين يدعون له باليمن
والسعد . وقد استوقف الانظار حينئذ القائد رأفت بك الذي
كان مرتديا كسوة رمادية جميلة لا ينفذ الماء منها ترمز الى صحراء
التيه وتستهوى القلوب بذكرها .



٢ - في سوريا

رحل معسكر الجيش من الآستانة الى سوريا رحلة ذات رونق وبهاء وابهة وجلال ، فكان الناس يخرجون لاستقبالنا في كل موقف من مواقف القطار على اختلاف طبقاتهم من العلماء والكبراء ورجال الملكية والعسكرية وعامة الامة وصبيان المدارس فيلقون الخطب بين يدي جمال ويرفعون اصواتهم بالدعاء زرنانا في (قونية) حضرة مولانا جلال الدين الرومي وزاره معنا رئيس اركان الحرب الالماني وفي نفوسنا من هذه الزيارة اثر روحاني ملائناً يقينا ورجاء ، وقد اقلتنا السيارات من (بوزانطي) وقطعنا مضيق (كوك) الشهير الذي شهد موكب الاسكندر الجليل ومواكب الغزاة الفاتحين بين اورو با وآسيا فلا يبرح مدلا بنفسه ، عجبا بمكانته . واستقبلنا التلاميذ في اطنه وطرسوس والاسكندرونة بالرايات وهم ينشدون اناشيد الانتقام للروملي وفي جمالتهم بنيات يتامى يرددنها بصوت شبح يستدر العبرات ويرمض^(١) الخواطر

وما اكثر ما يجب علينا وما اكثر ما حملنا الدهر اياه ، وطالبنا

(١) رمض اليوم « او الخاطر » : اشتد حره

به كفتح مصر واسترداد الروملي؟؟
امطرت السماء بادية (كيليكيا) مطرا وابلا منهمرا سالت
به القيمان والاودية وطفت^(١) المياه في بعض الاماكن فزال
خطوط السكة الحديدية عن مواضعها واضطرتنا الى قطع مراحل
على ظهور الخيل بسبب السيول والمياه الطاغية

كان مسيرنا بين (طوبراق قلعة) والاسكندرونة في ليلة
اضحيانة^(٢) قراء لانساها ما حيت مهابا نيت بين امواج بحر
الروم وبين هدير السيول ، وفي هواء طلق عقب بارواح الجنائن
والخمائل^(٣)

كباد يكون الطريق الذي سرنا فيه باجمعه مغمورا بالمياه
شديد الحزونة والوعوثة^(٤) غير اننا لم نعبأ بهذه المتاعب
كانت خيالات الاهرام تروح عنا وتنفس كربنا وكان
نسمات كيليكيا العليلية وذلك البحر اللحي الذي ارسل عليه القمر
اشعته سقيانا كأسا من رحيق^(٥) مختوم دارت في رؤوسنا سكرته

(١) طغى : جاوز الحد ، وطغى السيل : جاء بماء كثير

(٢) اضحيانة : نورها كنور الضحى « والضحى ارتفاع النهار »

(٣) الخميلة : الشجر المجمع الكثيف

(٤) الحزونة والوعوثة : غلظ الارض وشدها

(٥) الرحيق : صفة الخمر

وذهبت بنا كل مذهب فلا ترجع اليانا نفوسنا الا عند مهواة
سحيقه^(١) او قطع من الصنخور مبعثرة او عند رؤية بواخر رصد
تشق عباب اليم ولكن لا تلبث سكرة الخيال ان تعود فتستولي
علينا وتستأنف سيرتها الاولى .

ولقيتنا في حلب وحمه وحمص وبعابك من الحفاوة والاكرام
اوقع مما تقدم . فكان الشعراء يتلون قصائد الحماسية ويجلون بما
اوتوه من بلاغة فاتح مصر ويسجلون له الفتح قبل وقوعه جزاء
مقدمه له . اما انا فقد كانت تعرض في خاطري رحلة (الجنرال
كورباتكين) من بطرسبورج الى الشرق الاقصى في غضون
الحرب الروسية - اليابانية مأمورا بالنصر والظفر وكنت اذكر
غير مختار ما لقيه من الحفاوة حيثما مرت سوابقه .

رحل الجنرال كورباتكين هذه الرحلة تحف به الدعوات
المتصاعدة وتحوم حوله آمال الملايين من النفوس ولكن نبا حد
حسامه واسودت وجوه آماله فتخلى الجيش الروسي عن (موكدن)
بعد حرب استمرت عشرة ايام وانجلي عن منشوريا كلها ولم يبق
لسلطنة الروس رجاء في الشرق الاقصى بعد الحريق الذي سعرته
مؤخرة جيشهم في موكدن ، ولو ان الجنرال كورباتكين اعمل

(١) المهواة : ما بين الجبلين ، والسحيق : البعيد والعميق

رأيه في آمال قومه وفي القوي اليابانية التي يقودها (المارشال
اوياما) ونظر في الامر نظرة عسكري حاذق ، لاخذ المقيم
المقعد واضطرب اضطراباً شديداً .

ولا شيء ادى لقلب المرء من سؤال الطيبين الطاهرين
اياهم والحاحهم عليه بان ينجز لهم عملاً ليس في مقدوره انجازه .
غير أن ملاحظ جمال باشا ومخايل وجهه لم تكن تدل على شيء من
هذا الاضطراب بل كان يُرى (ثالث الثلاثة في تركيا)
متمكناً من نفسه متمسكاً في عواطفه ، مسيطراً على ميوله ،
مردداً فيمن حوله نظرات ساجية مستقرة كأنها تنادي بان الآمال
في محالها وانه حقيق بكل ما قيل من شعر وعمل من حفاوة .

اما دمشق فقد اعدت انخم الموابك وازهاها : تلك
المدينة التي استقر فيها ملك (ابناء حرب) وبلغت قمة العز في
ايام آل مروان ، ايام امتد سلطان العرب فوصل الشرق بالغرب
وخيم في بلاد تعد مائة الف الف من النفوس . ولقد حاول
(تيمورلنك) ان يطمس آثارها ويخفي معالمها فاطلق في ربوعها
النار واعمل في اهلها السيف وغادرها قاطا صفتاً في وسط
بستان فسيحة ومياه دافقة ، الا ان تاريخ دمشق الزاهر ومكانها
الجغرافي الباهر ابقياها للعرب مركز عز خالد ومستقر ملك معنوي لم

تقويد تيمورلنك ولا غير الزمان على طبي بهجتها واعفاء رسومها
وقد استقبلنا في دمشق استقبالا حافلا ليس فيه زيادة
لمستزبد فازينت المدينة احتفاء بقدم فاتح مصر وتراكم
الالوف من الناس الى موقف القطار وفيهم رجال الدولة وقادة
جندها وسادة البلاد وعلماؤها وخطبائها وشعراؤها وقناصل
الحكومات فيها وذبحت الاضاحي والقيت القصائد الغر التي
هي اشبه شيء باحاديث المناجاة وانصرف الناس مبتهجين
متحمسين وكان يوماً لا نظير له .

ثم استقر معسكر الجيش في فندق (داماسكوس بالاس)
وباشر عمله بمنتهى العزيمة والمهمة .

وفي مساء ذلك اليوم اي في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٣٣٠
برح دمشق ذكي باشا قائد الجيش الرابع السابق وسار به القطار
ساكننا ساكننا متطامناً^(١) لم يشعر بخبره الا قليل من الناس .

(١) نطامن واطمان اليه : سكن اليه



٤- التأهب لغزوة مصر

تعبئة الفيلق الثامن - نواقصه الكثيرة --
فون كريس - مجاهل الصحراء - الحقيقة
والخيال - النزاع بين كريس وفلكنهاين -
ملاك البادية = القطرات والقوافل -
تدابير المنزل - الحشد والتعبئة -
التربص في الحدود .

رأينا ان الفيلق الثامن هو الذي كان يأخذ الالهة لغزو
مصر وقد زجى جيشا على حسب انظمة الحرب لاسير الى القناة
ويتألف هذا الجيش من ١٠ كتائب و ٣ سرايا مدافع رشاشة
و ٧ بطاريات مدفعية فيها مدافع صحراء ومدافع جبلية و بطارية
مدافع من طراز (اوبوس) سريعة الطلق ولواء هجاجة وكتيبة
استحكام وامثال ذلك . وقد اختيرت هذه الكتائب من الفرق
ال ٢٣ وال ٢٥ وال ٢٧ وهي التي تولف الفيلق الثامن وبذلك
بدأت الانظمة الاساسية ولم يكن قد اجتمع في الوية الفيلق
الكتائب الثلاثة من المشاة وقد استبدل الهجاجة بالفرسان
بسبب المياه والمعاش وارتدى الهجاجة البسة العثمانيين القدماء
من السراويل والجزم والاردية القصيرة وعقدوا على رؤوسهم

عمائم رمادية فوقها هلال .

وكانت التجريدة مؤلفة من قلب وجناحين ، في القلب
٣٧١ ضابطا و ١١١٤٦ جنديا و ٨١١ حصانا و ١٨ ذلولا و ١٥٠
سائقا و ١٤٤٤ بعيرا . وفي الجناح الايمن ٣٣ ضابطا و ١٣٨٦
جنديا و ٥٥ حصانا و ٩٥ سائقا و ٤٣ بعيرا وفي الجناح الايسر ٣٢
ضابطا و ١٣٨٦ جنديا و ٨٨٧ حصانا و ١٨ ذلولا و ٢٠٧ من
السائقين و ١٥٣٤ بعيرا وهذا هو الفريق الاول وتليه الفرقة
العاشرة وهي من خيرة الجند التركي .

ويكون في سوريا وفلسطين معسكر بقية الفيلق الثامن ،
والفيلق الثاني عشر الذي قدمها من الموصل بقيادة نخري باشا
وتتم فرقته ال ٣٥ وال ٣٦ ما ينقصهما في منازلها بجوار
حلب وحماه .

لم يكن لدى التجريدة طائرات ولا برق لاسلكي وامثالها
من العدد الفنية المستحدثة وقد أمر القلب بالتوجه من بئر السبع
الى الاسماعيليه وأمر الجناح الايمن باتباع طريق (غزه - العريش -
القطره) وأمر الجناح الايسر بالسير من قلعة النخل والسويس .
ولم يتيسر لمعظم الجيش محاذة الساحل بسبب قبض البريطانيين
على زمام السيادة البحرية - ولم يكن له غير الامعان في قلب

الصحراء وقطع فلواتها بعد حفير العوجة بدون طريق واضحة
ولا خارطة منظمة .

فعلى هذه الحملة ان تكون اول من يخوض تلك المجاهل
بأعبائها واتقالمها مثل مدافع الصحراء والمدافع الثقيلة والجسور .
وقد قضت عقباتها وشدائد الطبيعة فيها وفقدان وسائل النقل
واستعاضتها بالابل والاقلال من هذه خشية الجوع والظلم واشباه
ذلك باغفال الاساليب العسكرية والقواعد الفنية واتخاذ طرائق
جديدة تناسب طبيعة الزمان والمكان .

لقد كانت هذه الحملة نسيجة وحدها وفريدة دهرها فوجب
ان يكون نظام الطعام والشراب والنقل على حسبها لاعلى حسب
المناهج التي تسلكها جميع الممالك المتقدمة في انظمتها واوضاعها
العسكرية . فكان تجارب العصور وعبر الايام وكل شيء من علم
ومعرفة اضمحل فجأة امام نفحة من نفحات سيناء ! ولزم احياء
خلاق جريده من العدم ، ولعمر الحق لقد كان ذلك . .

ما اكثر المساعي التي بذلها (فون كريس بك) في سبيل
معاونة قائد الفيلق الثامن وتدارك ما تحتاج اليه الحملة ؟ كسرت
رباعيته في بكور يوم وكان غاديا في سيارته على معسكر
الفيلق فاصيبت سيارته ولم تكن عزيمة بل مضى في سبيل ما قصد

له واجل مداواة جرحه الدامي الى حين الراحة . وكان دوءه وبأ بعيد الهمة لا يستريح قلبه ولا يجف لبدنه^(١) ولا تنف رجلاه وما من يوم من ايام الصيف ولا ايام الشتاء ذر^(٢) فيه قرن الشمس ولم يباشر اعماله .

لم يعرف له مثيل في شدة عزمه وبأسه وجراته وطموحه واقناع مخاطبه والتأثير عليه تأثيرا يسبحر قلبه ويختلب له ، والقدرة على الاختراع والابداع وغير ذلك من المناقب النادرة . ولم يكن ينقصه غير شيء واحد وهو صحة الرأي وبعد النظر . وكان الطبيعة وهبته كل شيء ليكون عسكريا بارعا ثم عدلت عن ذلك على حين بفتة فخرته العقل الراجح

وكنت أرى في اطواره وطباعه من رقة الحاشية ولين الجانب وكرم الاخلاق ما لم اكن اراه في ضابط الماني غيره . وهو من ابنا اسرة عريقة نبيلة في (بافاريا) وقد انتخب من لجنة الاصلاح العسكري الالمانية وقلد ادارة مدرسة الرمي المختصة بمدافع الصحراء فابقي في قلوب ضباط المدفعية اعظم اثر يذكر له من معارفه العسكرية الواسعة وعلاوة على ما سلفناه فانه قاوم بعض

(١) في الاساس : ومن المجاز فلان لا يجف لبدنه : اذا لم يزل يتردد

(٢) ذرت الشمس تذر ذرورا « بالضم » : طلعت

رؤسائه الذين كانوا يرمون الى الاتيان بعدد مدفعية جديدة المانية
ورد عليهم قائلاً : « ان في الجيش العثماني ما يكفي من السلاح
وحسبهم ان يحسنوا استعماله ، ولا تسمح الخزينة العثمانية
بالاسراف في اشتراء اسلحة جديدة »

تبين لنا ان كريس بك كان على جانب عظيم من مكارم
الاخلاق و شرف الطباع وقد نقل من مدرسة الرمي الى رئاسة
دائرة الجيش في وزارة الحربية ، ولما كانت المدة التي أنفقت في
سبيل اصلاح الجيش بين الحرب البلقانية والحرب العامة غير
مجزئة لاعداد الجيش اعدادا كافيا ، لزم تدارك بعض اشياء على
جناح السرعة فكان كريس بك في هذه الايام العصيبة روح
الحركة والنشاط

وقد روى عنه فتى من اركان الحرب انه قال لما أعلن النفير
العام : الآن تم كل شيء . وقد وقع عليه اختيار وزارة الحربية
ليذهب ويتكلم باسمها في مجلس الوزراء وقيم البراهين على وجوب
اعلان النفير العام منذ ابتدأت الحرب الاوربية
وتولى كريس بك الذي ظهر هذا المظهر الجليل ادارة شعبة
الاعمال الحربية في المعسكر العام . فالخطة التي سار عليها الجيش
العثماني من صنعه ووضعه

ولو التي على ضابط من اركان الحرب سوال فرض فيه نشوب
حرب عامة = قبل ان نشبت = وسئل عن الخطة التي ينبغي على
الجيش العثماني ان يقف عندها وجاء جوابه موافقا لما رسمه فون
كريس ، لكان نصيبه السقوط حتما . فقد سارت فرقة بغداد
ال ١٢ التي هي من الفيلق الثالث عشر الى وان مشياً على الاقدام
وتوجهت فرقة الموصل ال ١٣ الى حلب ثم الى حماه ، وبرز الفيلق
السادس حلب الى الآستانة وذهب الفيلق العاشر من سيواس
الى صامسون ليهدد بالنزول في اوده سا

وعلى هذه الخطة سحب الجيش من العراق وحرم جيش
ارزروم من قاعدته المكيئة في سيواس ، وهلكت الفرقة الثالثة
عشرة في سيواس لانها لم تألف اقليمها . ولكن اعيد بعد ذلك
قسم من الفيلق الثاني عشر الى العراق وسبق الفيلق العاشر الى
ارزروم وارسلت الفرقة ال ٨ وال ١٠ من الآستانة وازمير الى سوريا
بدلا من الفيلق السادس الذي جرد من حلب وارسل الى الآستانة ،
وهذه الخطة القوية التي يوحى بها العقل ويامر باتباعها باديء
الرأي لم تنفذ الا والبلاء محقق في البلاد ، غير ان المعسكر العام
لم يزل يرى في الخطة السابقة اثرا نفيسا من الصناعة البديعة
والمعرفة الدقيقة

وبعد ان اتم الجيش تعبئته وترجيته ارسلت (ادارة الاعمال
الحربية) الى سوريا لتبلغ من الاقدار ما هو اعلى رتبة واسمى
منزلة! وبقي كريس بك في سوريا يتقلب في المناصب الرفيعة
والمراتب الشريفة فاشترك في حملة القناة وكان له منها نصيب
وافر بصفته رئيس اركان حرب الفيلق الثامن، ثم ولي قيادة
الصحراء وبعدها رئاسة اركان الحرب في الجيش الرابع ثم جهزت
تجريدة ثانية على القناة اكثر عدة وعددا من التجربة الاولى
ووضعت تحت قيادته وله منزلة قائد فيلق واختصاصه، ثم عين
قائدا للفيلق الثاني والعشرين في حدود سيناء ثم رقي الى قيادة
هذه الساحة وولي بعدها قيادة الفيلق الثامن .

فاصبحت تلك الفلاة مجالا واسعا لفنون كريس يستنفد
فيها قوى الترك التي لا تنفذ - على رأيه - فيجوب قفارها
وينفض اجوازها، وكأنه مشكاة من نور قدر لها من الازل ان
تضيء في صحراء التيه!

وفي كل هذه الاعمال كان كريس بك (او كريس باشا)
جامعا لاشرف الخصال واحسن المزايب العسكرية والشخصية ولم
يحرم الا من رجاحة العقل . وما في الدنيا عسكري بذل مثلاما
بذل كريس من التفاني ومن العزيمة والهمة في سبيل فكرة بقدها

ويعتقد بصحتها .

وقد اتخذ (الابن) مستقرا له في اثناء قيادته الصحراء وهو
مكان في جوف سيناء دارس الاطلال طامس المعالم اطلق عليه
لقب الابن لاماء فيه ولا مرعى ولا ثمار ولا يحتوي من الاجسام
الحية على غير الاسود^(١) والعقارب وبقايا الحيوانات البائدة .
ومضى قائد الصحراء يكافح شدائد الطبيعة واعاصير^(٢) البادية التي
كانت تنافس الطيارات في اعاقه النقل واقامة العقبات في تلك المغاوز
فهل كان من الحكمة وحسن التدبير ياترى مقاومة تلك
الشدائد ومغالبة تلك المصاعب لاجل القناة؟ وهل يأذن العلم
والفن ببذل تلك الجهود؟ لاسيما وقد انشأ البريطانيون سلاسل
من المعازل المنيعة في شرقي القناة على احدث نظام عسكري وأتم
اسلوب بلغتها المدارك البشرية . وهل كان في وجوه الرجاء ان
تغلب تجريدة عسكرية على هذه المعازل؟
ولا ينكر ان البريطانيين تخروا قوى كبيرة وانفقوا اموالا
كثيرة ووجدوا حياهم قلائل مستمرة في حدود مصر واذا امسكنا
عن القول بما في علمنا من الصواب والخطأ - وليس هذا الامسك

(١) جمع اسود: وهو العظيم من الحيات

(٢) جمع اعصار: وهي ريح تثير الغبار فيرتفع الى السماء كأنه عمود

بالامر اليسير - رأيناه عملا جليلا بعيد الاثر ، شريف الذكر ،
رفيع المنزلة ، زاهر التاريخ وهو ولا ريب فيه من اعظم المساعي
التي صدمت فيها قدرة البشر وطاقاتهم شداًد الطبيعة واهوالها
ونازلتها منازل الاقران للاقران .

ففي سنتين مهدت السبل التي تمتد الى جوار القناة
واستنبطت الينابيع واحتفرت الاقنية وانشئت الحياض وبنيت
السدود ومدت المسالك الحديدية وغرست الجنائن وشيدت
المباني والمستشفيات والانابيب وقد عبد من الطرق في غضون
الحرب ما يبلغ طوله ١٠٠٠ كيلومتر في سوريا وفلسطين وسيناء
و ٥٠٠ كيلومتر من خطوط السكك الحديدية .

وليس كريس بك وحده هو الذي اتى بذلك كله بل ان
هذا الرجل الذي لم يكن يرضى ان يسطع في التيه كوكب
بجانب كوكبه لم يكن يستحسن القيام بكل تلك الاعمال الواسعة
ولكن اليس كريس بك هو اول من اثار هذه الفكرة
في نفوس الترك وساقهم الى سيناء ؟ ، الا اننا جميعا اقتفينا
آثاره ووقفنا عندما رسم لنا

وهنا يجدر بي ذكر قول « الطان » :

« لقد جاء الترك في سيناء بعمل عظيم » ، ولكن ماذا تعني

معالجة الامور المستحيلة ومحاولة تدليلها؟

اول ما يجب السعي اليه في الاعمال العسكرية والسياسة هو ابتغاء النجاح والتميز بين الحقيقة والخيال ، والممكن والمستحيل تميزا لا يعترضه الشك ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وما فائدة المساعي التي تبذل والفكرة التي تعمل والجهود التي تسخر اذا لم يكن العمل في اساسه مستندا على الحقائق والممكنات ؟ واذا كان العمل مستحيلا افلا تكون مضاعفة العزائم والاعتاب والاضاحي سببا في زيادة الخسران ؟

على انه عقدت بنودنا بالظفر في معركتين نشبتا في سيناء وكان كريس قائد هذه الساحة ولقد كان من الممكن ان ينقلنا الى هزيمة بسبب عناده ، ولو تم ذلك لاضعنا سوريا من زمن بعيد ولما قلد الجنرال « فلكنهاين » القيادة العامة في ساحة سوريا وفلسطين كان بينه وبين كريس حالة اشبه بالبراز ، فلم يكن يصغي (كريس) الى فلكنهاين الذي يفوقه علما ونجاسة ومقدرة ويتقدم عليه تقديما بعيدا لانه يرى نفسه الاخصائي الفرد في شوون البادية فيضطر فلكنهاين الى مجاراته والتنازل له عن آرائه في بعض الاحيان وقد ادى تنازع الرجلين الالمانيين الى انسحاب الفيلق العثماني الذي كان مرابطا في بئر السبع ، وقال

لي قائد هذا الفيلق قبل ذلك في حديث له ينم عن شعوره بقرب حلول النازلة: اني ارى فون كريس شوؤما على بلادنا .
اما اعمال الفيلق الثامن التي تعد من الخوارق فهي تُجمل بما يلي:

١ - مراك البادية: واساس هذا الملاك حذف اعباء الجيش الثقيلة وتخفيض انتقال الضباط الى خمسة كيلولاجل كل واحد وتقليل عدد الدواب التي تحتاج الى شبع وري بقدر ما استطاع واخراج الذين هم عالة على الجيش من غير المحاربين كموظفي الحساب والخدم والحواشي واشباههم ولم يستبق من هذا النمط غير الائمة .

ولما لم يكن لدى الجيش خيام ومضارب كان عليهم ان يناموا في الفضاء وقد اعطي كل طاور مضربا او مضربين لاجل المرضى .

هذا هو ملاك البادية الذي خلقت اجزأه خلقا جديدا وارتكنت عليه حملة مصر . وكان على حسبه معسكر الفيلق مؤلفا من ١٨ ضابطا و ٢٢ جنديا و ١٥ حصانا و ١٨ ذلولا و ٧ اباعر وكان طاور المشاة مؤلفا من ٢٢ ضابطا و ٨٩٥ جنديا و ٦ احصنة و ٢٢ بعيرا وكانت سرية بلوك الرشاش تحوي ٤ ضباط

٩٣ جنديا وحصانا واحدا و ٢٨ سائقا و ٧ اباعر . و البطارية
السريعة تتألف من ثلاثة ضباط و ١٤٢ جنديا و ١٠٨ من الاحصنة
٢- الجراية : يتناول كل فرد في اليوم ٦٠٠ غرام بقسماط

و ١٥٠ غرام تمر و ٩ غرامات شاي

٣- نظمة القطارات والقوافل : ألفت خمس كتائب هجانة

لاجل نقل الارزاق والمياه . فالكتيبة الاولى وهي ٢٥ زمرة
تحمل ماء والكتيبة الثانية كذلك وهي تتألف من ٢٥ زمرة
فيها وفاء الخمسين . وكانت الكتيبة الثالثة تحمل مؤونة وهي
تتألف من ١٠ زمر ، وهذه الكتائب الثلاثة تابعة للقلب :

واما الرابعة والخامسة فقد كانتا تحملان ماء ومؤونة وكل

واحدة منهما تتألف من ١٠ زمر خصصت لاحد الجناحين .

وكان في كل زمرة من زمر المؤونة ١٢٨ بعيرا تحمل جراية

يوم للقلب . وفي كل زمرة من زمر الماء ٩٢ بعيرا وعلى كل

خسة منها ان تحمل ماء يوم للقلب . وعلى كل زمرة مختلطة

ان تكفي جناحها طعام يوم واحد وشرايه فيخرج من ذلك ان

زمر الاباعر تحمل طعام عشرة ايام وشرايها فقط ما عدا الذي

يحملة كل فرد من ماء وغذاء

وقد وضعت تعاليم مسهبة فيما يتعلق بقطارات الارزاق

والمياه وعدد اباعرها ومقدار حملتها:

فيحمل بموجبها كل بهير من ٨٥ بهيراً في كل زمرة مؤونة
كيسي شعير وكيس بقسماط وزق ماء فيكون مجموع ماتحملة كل
زمرة مؤونة ١٧٠ كيس شعير و ١٥٦ كيس بقسماط و ٢٢ كيس
تمر ، وعلاوة على ذلك ففي كل زمرة ٦ اباعر يحمل كل منها ٢٠٠
كيلو ماء سدا لحاجتها في عشرة ايام و ٧ اباعر يحمل كل منها
كيس شعير وكيس تمر وتنكة شاي

اما زمر الماء فقد كان على كل بهيران يحمل ١٨٠ كيلو ماء

وتختلف اوعية المياه وعددها بالنظر الى سعتها

وقد كان على كل زمرة ماء ان تحمل لمن فيها من الاباعر والجنود
ما فيه سداد حاجتهم لمدة عشرة ايام . وقد الف في القلب ثمانية
زمر لاجل ذخيرة البطاريات الثقيلة وزمرتان لاجل بطاريات
الصحراء الخفيفة وواحدة لاجل المشاة ولكل مدفع من مدافع
(او بوس) ٦٠٠ قنبلة ، وتألّف كل زمرة ذخيرة من ٨٧ بهيرا
ويحمل كل بهير اربعة قنابل للمدافع الكبيرة او ١٦ لمدافع
الصحراء او ٥٢ للمدافع الجبلية او ٤ صناديق للمشاة

٤ = نظام السير : = الزمان

ينهض الجند في الساعة الرابعة صباحا وتقوم المقدمة في الساعة

٥١٣٠١١ و يسير سواد الجيش في الساعة ٦ وتكون الاستراحة
الاولى من الساعة السابعة الى ٧١٢٠١١ وتكون استراحة بعد الظهر
من الثانية عشر الى ١٦٣٠١١ ويخيمون من الساعة الثانية الى
الرابعة ويتلقون الاوامر في الساعة الخامسة .

وتحمل اربعة ازرار امامية من السترة اثناء المسير ويتسامح مع
الجند في المشي ويعظم الائمة والضباط ويبينون لهم ان الظفر
في تقدمهم والموت في التأخر ، اما الذي يترك كتيبته من غير ان
بوءذن له فانه يرمى لساعته . وأمرت كتائب المشاة باسعاف
المدفعية حين الحاجة الى المعونة في تسيير المدفعية . ويتراوح الافراد
بينهم حمل البنادق

وكنا نمتطي الليل ونسكن في النهار لان برد الليل القارس
يجول دون الرقاد ومن منافع هذه الطريقة تقليل الحاجة الى الماء
٥ = فدا بر المنزل : قرر قبل قيام الحملة ان يدخر في بر
السيح وحفير العوجة ما يكفي لأمين حاجة القلب مدة شهرين
وحاجة الجناحين ٢٨ يوما وقرر ان تحمل هذه المومن قوافل
الفيلق الثامن والفرقة العاشرة من (سيله) التي هي آخر موقف
القطار وبيتدى بالادخار من اول كانون الاول
وامر القلب بالمشي الى الاستماعية باعتبار كل ثلاثين كيلومترا

(منزلاً) فيكون بين بئر السبع وبين الاسماعيلية ١٠ (منازل)

سميت بما يناسبها

٦ - خطة الحشد: تبدأ التجريدة بمغادرة دمشق في اول

كانون الثاني سنة ١٣٣٠، وتبرحها الساقية في الـ ١٩ من الشهر

المذكور، وتزحف المقدمة من بئر السبع نحو القناة في ٢١ منه .

٧ - خطة التعبئة: كان على الفيلق الثامن ان يتوجه الى

القناة ويهاجمها بعد الانتهاء من احتشاده، وتليه الفرقة العاشرة

بعضها اثر بعض على قدر ما تسمح المؤونة والماء ووسائل النقل

على ان الهجوم بالقوى الضعيفة مملوء بالاخطار ولكن

ليس من المتيسر ان تزحف الكتائب الجسيمة في صحراء سيناء

وكما زاد عددها زادت المصاعب واذا امكن الفريق الاول

ان يجتاز القناة فانه يعسكر غربها وينتظر الفريق الثاني .

ثم انه لم يعول في الخطة على الفتح عنوة بعد التفوق في

النار بل عول على قاعدة المباغنة التي تعتم في الليالي الدامسة ،

واذا لم يبرح المعاتلة بئر السبع في ٢١ كانون الثاني فان هجوم القناة

يؤجل شهراً آخر . ولا تسمح الحالة السياسية بالبطء لما يخشى

من اثره السيء في نفوس العرب .

ومن طبائع الانسان ان تستفزه عاطفة التنافس والتحامد

عندما يشاهد اعمالا كهذه وليس من المستطاع ان يعرفها
بجنبه^(١) ويجعلها تحت قدمه ، كما انه ليس من الممكن الاستغناء عن
الذين قاموا بتدبير تلك المعجزات وارضاء هوى النفوس . .

وإذا اردنا ان نلخص الحالة الروحية في الجيش والفيلق
رأينا رئيس اركان الجيش اقدم من « كريس » واكبر سنا وهو
من بروسيا . واما كريس فقد كان من (بافاريا) وهو انضر
شبابا واشد طموحا واذكى فؤادا وكان قائد الجيش « ديكتاتوراً »
وقائد الفيلق شجاعاً جريئاً فتمت المشاكلة بين كل اثنين من
هؤلاء الاربعة والفوز لا محالة من نصيب الموصوفين بالجرأة
والذكاء والطموح وكان الجيش يظهر بمظهر القابض على زمام الامر
والحقيقة ان الفيلق استمر بصدق عزيمته وقوة ارادته متغلباً
على رغائب الجيش وخططه الى ساعة الهجوم .

وما كادت تحل قيادة الجيش في دمشق حتى طالعت
خطط الفيلق على عجل فرأت ان هجوم الفرقة الاولى الذي
يصل القناة عمل يستوجب الشكر والثناء لما فيه من درك
النتائج السريعة الا انه مخوف بالاطار ولذلك ينبغي التبريث
الى ان تتمكن الفرقة العاشرة وفرقة الحجاز والمتطوعة من

(١) عرك الشيء بجنبه : احتمله

الاشتراك في الهجوم وقد طلبت من الاستاذة ان تجدد الحملة وتزيد في قوتها ومكنتها فتمدها بفرقتين تركيتين وكتائب استحكام ورشاشات قوية وطائرات ومدافع صحراء ، ولم يأت من ذلك غير الفرقة الثامنة ومدافع قديمة ذات عيار ١٢ سنتمترا ثم ان قائد الجيش الذي انيط به الهجوم على مصر والدفاع عن سوريا وجد ان العمل الاول مقدم على الثاني فوجب ان يتولى قيادته بنفسه وبكل امر سوريا الى رجل يختاره ويرجع اليه في امره ، ولذلك احدثت الانظمة الآتية :

تتألف المقدمة من الفيلق الثامن وترجع هي والفرقة العاشرة وتجريدة الحجاز الى الجيش الرابع ، اما الفيلق الثامن عشر وبقية الفيلق الثامن فانهما يرجعان الى فخري باشا بصفته وكيل قائد الجيش ، اما قيادة فلسطين واطراف المنزل فيها وفي سوريا فانهما تتبعان سلطة القائد العام مباشرة .

وقد تحتم ان تقسم سوريا الى مناطق عسكرية مختلفة يرجع قادتها الى وكيل القائد العام كي يستقر فيها الامن وتدفع عنها الغوائل الداخلية والخارجية .

وقد صادفت هذه الخطة هوى من نفس القائد العام ومطابقة لروح القصد واصبح عليه ان يقود بنفسه حملة مصر وان

يفوض هجوم الفئاة الى الفيلىق الثامن وبقلده تبعته وبذلك لا يكون النفوذ والسلطة في سوريا وفلسطين في قبضة واحدة يمكن ان تسمو الحوادث بصاحبها ولكنهما وزعا على ثلاثة في سيناء وهم : قائد الفيلىق الثامن (جمال باشا) وقائد الفرقة العاشرة (فون ترومر) وقائد تجر يدة الحجاز وهيب بك (باشا) .
واما في سوريا فقد وزعا في دمشق على فخري باشا وكاظم بك (باشا) . مفتش منزل الجيش وفي القدس على مفتش المنطقة « بك باشا » ومفتش منزل القدس قائم المقام روشن بك .

ولم يكن لواحد من هؤلاء السبعة سلطة على الثاني ولكن كانوا جميعهم في قبضة القائد العام وحده .

ولما جاء المعسكر الى دمشق كان عدد الابل قليلا جدا فكان ينقص الفيلىق الثامن ٤ آلاف بهير وكانت الفرقة العاشرة تحتاج الى ٢٥٠٠ بهير لاجل طعام عشرة ايام وشراب يوم واحد حسب القاعدة المتبعة في الصحراء . ومن هنا يتبين ان من اعظم المساعي التي ينبغي ان يبذلها الجيش هو تدارك الابعار وقد امكن الحصول على ١٠٥١٤ بهيرا بين ٥ كانون الاول سنة ٣٣٠ و ٢٢ كانون الثاني من السنة نفسها — باعتبار اذار اول السنة .

اما خطة حشد الفيلق الثامن فهي ان يأخذ بمغادرة الشام في ا كانون الثاني ويؤلف مقر الفرقة المقدمة ويذهب معهم مفتي الشافعية في المدينة المنورة السيد ابو بكر حاملا اللواء الشريف الذي جاء به .

ولا انسى ما حيتت حماسة ذلك اليوم في دمشق وقد ذهبت لمشاهدة المعسكر المحمول على الاباعر في مسيره بين المحطة والثكنة ، فشاهدت كل من فيه من ضباط وجنود هائجين مأجبن تحرك اعطافهم نشوة السرور وهزة الفرح والشوق كما تحرك النسمات نواعم الاغصان ، ولم يبق مكان لم تؤثر فيه تلك العوامل اثرها . وكان لم يبق انسان لم تحدثه نفسه بالنفر معنا والمضي الى القتال في صفوفنا ، ولقد تمكنت هذه العواطف من النفوس وبلغت منها خير ما تبلغه فبكي فريق من شجوه وحنينه .

قام الفيلق بعد ايام الى القدس وكانت الفرقة الاولى وفرقة الحجاز بحاجة الى استجماع العدة وجمع الاطراف وليس من الحكمة كلها التعويل على عبور القناة بفترة ولم يكن بد من العمل على اجتيازها عنوة مما يستلزم بقاء الحملة امام القناة مدة اسابيع : ولهذا أمر بانشاء منازل في البيداء تحميها السرايا

التي يبثها الفيلق وامر باستنباط المياه لمعونة المنازل وتأسيس
المستودعات في وسط هذه البيداء وادخار الارزاق ، ودعي ايضا
الفيلق الى التربص في الحدود الى ان تجتمع الفرقة العاشرة
لقد اثر هذا الامر في الفيلق اسوء اثر وهاج غضبه لانه
اخذ الالهبة منذ اشهر ليتوجه الى القناة في ٢١ كانون
الثاني . والخطة السابقة تقضي بتبديل كل شيء وكان الجيش
يرغب ان يكون وراء الفيلق فاذا نزل خطب سئل الفيلق
عنه واذا تيسر نجح استأثر الجيش به وادعاه لنفسه

رد الفيلق على تلك الخطة وبين انه من المستحيل انفاذها
لان التربص في الحدود يسبب انفاق ما جمع من المؤونة بكل
جهد وعناء وفي كل يوم يهلك جزؤ من الاباعر واذا استمر على
ذلك مدة طويلة لم يبق لديهم ما يكفهم .

ولما جاء هذا الرد ذهب رئيس اركان حرب الجيش الى
القدس محاولة اقناع قائد الفيلق ، ثم عاد الى الشام عودة الظافر
في ١٤ كانون الثاني فلقيته في المحطة وسأله عن نتيجة مسعاه
فاجابني بكل خيلاء جواب البالغ من الامر مراده . على انه في
حقيقة الامر لم يحظ من الغلبة بشيء لان قائد الفيلق لم يرض
بجمال من الاحوال الا ان يرجي قيامه عشرة ايام وكان ميعاد

قيامه من بئر السبع في ٢١ كانون الثاني فأهمل عشرة . وعلى هذا
يكون الجيش قد نزل على رأيه

وفي هذه المدة المضروبة تصل مقدمة الفرقة العاشرة الى بئر
السبع ، ولا تبرح تجريدة الحجاز معان . ويصح للفيلق ان يرى
أن متابعة الجيش له واذعانه لحكمه فدية جلييلة في سبيل غرض سام
شريف لانه قصر مساعيه شهورا على التأهب والاستعداد ، فاذا
بدل الآن كل شيء جرح قلب الفيلق وخذت جذوة حماسته
واختلاف القائدين الكبيرين سيء الاثر في الغاية المقصودة
والحالة المعنوية .

على ان الحملة تبلغ مع الفرقة العاشرة وتجريدة الحجاز خمسة
وثلاثين الفا وابقاء هذه القوة امام القناة امدا طويلا يحتاج الى
استعداد وتأهب لاحد لها بل ان معنى انتظارهما العدول عن
غزوة القناة ومتى انقضى فصل الشتاء لم يعد يتيسر القيام بعمل ما
وخسائر الابل المتوالية تستوجب شراء اخرى وازدياد تناقصها
في البلاد ، ولذلك فان لقائد الفيلق الحق بمحاولة اجتياز القناة بغتة
مسلمة للقائدين لا مهاجمة على قاعدة نظامية مأمونة .

وهذا الاسلوب من المحاكمة يححو الاثر الذي يحدثه تعرف
قيادة الفيلق الثامن رجحان ارادتها .

٥ - الحجاز

موقف الحجاز قبل الحرب - الثورة في اليمن
اشترك الشريف في اخماد الثورة - اختلافه
مع شفيق باشا - وهيب بك - اشترك
الامارة في تجريدة مصر - معاهدة الامير
مع بريطانيا - خطط الاتراك - حرب
سنة ١٩٣ - تأثير اشترك الحجاز في الحرب
تجريدة الحجاز .

لا اظن تركيا ينظر الى هذا العنوان ولا يلمعج فواده وترقص
جوانحه ومع ذلك فاني لا اريد ان ابحت ههنا بجما طوبلا في
شان الحجاز واسباب ثورته

واذا نظرنا الى آراء الترك العامة وجدنا مسألة الحجاز التي
هي من اوجع حوادث الحرب واشدها ايلاماً جدية بان يفرد لها
مجلد بأسره . وسأوجز الكلام فيها بمقدار المناسبة التي بينها
وبين هجوم القنائة الاول فأقول :

لما خاض الترك غمار الحرب كان موقف الحجاز كما يأتي :
لم تكن الصلات بين امير مكة وبين والي الحجاز وقائدها
(وهيب بك) على حالة يُرغب في مثلها وكذلك الامر بينه وبين
الحكومة المركزية وهي نتيجة سبق وهم توالى حدوثه في سنة

١٣٢٦ ، ايام الانتفاض الكبير في (عسير) وانين ، كان الامام يحيى
يحاصر (صنعاء) وكان السيد الادريسي يحاصر (ابها) حاضرة
عسير وقد احتل جميع المراكز العسكرية بين ابها والساحل ، ولم
يهد مثل لهذا العصب ان الرائع فقد كان كل عصيان سبق
يقتصر على قيام الزيدية سكان الجبل ، ولكن نزول السيد
الادريسي الى المعركة في هذه الكرة برهن على انه خصم اشد
مراسا من الامام يحيى وهو شافعي المذهب وقد هدد نفوذ امير
مكة فلم يكن يرضى عنه بل يصير على مناوآته

قدر (عزت باشا) قائد الحملة اليمانية هذا الموقف حق قدره
واراد ان يجر الى جانبه قوة امير مكة لينقذ (ابها) فقابل الشريف
حسينا في ثغر جده ونجح من هذه المقابلة ان حضرة الامير اقر
الاشترك بقوته في حملة عسير وان يأخذ على عاتقه قيادة الحملة
العثمانية التي جهزت امير حتى تسير الامور سيراً سجعاً^(١) في
قبضة واحدة

فحارب الامير الادريسي حروباً طويلة انتهت بفوزه
ودخوله ابها ظافراً وقد ابى قائدها ومتصرفها سليمان شفيق باشا
بلاءً حسناً في الدفاع عنها ، ولم يمض اسبوع على دخول امير مكة

(١) سجعاً « بفتح السين والجيم » : اي سهلاً مستقيماً

ابها وفسكه الحصار عنها حتى فسد ما بينه وبين شفيق باشا
ولا ريب في ان هذا الخلاف الذي شجر بين المنقذ
والمستنقذ جدير بانعام النظر فكان سليمان باشا يرى ان امير
مكة لم يرم في تجر يده الى اعلاء كلمة الدولة العثمانية بل رعى
الى اغتنام الفرصة السانحة من جراء عصيان الادريسي وبسط
سلطانه في ارجاء عسير وتمكينه له بالتخاذ القوي العثمانية ظهيرة
لمقاومة الحكومة العثمانية نفسها ، وقد رأى المتصرف انه لامناس
من سلوك الخطة السالفة بصفة كونه ممثل الحكومة هنالك بعد ان
شاهد من اعمال الامير ما كشف له عن نيته ، وكان فيه مقنع لة
فوصفه بانه ادريسي مجهز بالبنادق والمدافع الا ان هذا المنهاج الذي
وقف عنده سليمان شفيق باشا لم يقع موقع الرضى من المعسكر
العام واستدل به على نقصان كياسته السياسية وسوء تدبيره
وبعد ان نتابع الولاية على مكة المكرمة انتدب لها الزعيم
اركان الحرب وهيب بك بصفة قائد للحجاز ووال عليها فسأت
الحال بينه وبين الامير في ايام قلائل وزيرين لحكومة الآستانة توجيه
حملة اليه مؤيدا دعواه ببعض الحوادث والاعمال فاجابته الحكومة
الى طلبه ولكن محمود باشا الشر كصولي حملها على العدول ، غير
ان هذه الفكرة وحدها كافية لاثارة امير مكة واذكاء نار غضبه .

ذلك هو الموقف في الحجاز لما نشبت الحرب العامة
ولما وافينا دمشق وردت علينا برقية من وهيب بك
يسأل فيها عما يؤمر به لان فرقة الحجاز اصبت بتمتضي
الوامر الاخيرة الصادرة من وكيل القائد العام مرتبطة بالجيش
الرابع ومأمورة بمجاراته ومتابعته في خطته .

وجاء من امير مكة في هذه الفوضون ان الامارة تعاهد
على الدفاع عن الحجاز وتضمن ذلك فلا بأس من اشتراك
الفرقة مع تجريدة مصر ، بل ان الامارة الجليلة حاضرة لامداد
الفرقة ونجدها .

فتحتم ان يضع الجيش خطة فاصلة صريحة في هذا الشأن
فقلبت وجوه المسألة ونظرت اليها من ابوابها فرأيت انه مهما
كانت النيات والرغائب التي تعزى الى امير مكة علينا ان نتناساها
ونتناسى معها كل خلاف وان يشد بعضنا ازر بعض بعد ان اعانت
الحرب واعلن معها الجهاد المقدس . واكبر عمل في هذا اليوم هو
ان تشترك امارة مكة وفرقة الحجاز في تجريدة مصر ، واذا كان
الامير يعمل على اشغال الثورة ، واذا كان قد انفق مع البريطانيين
فليست فرقة الحجاز بمكان من القوة والمنعة يجعلها كافية لمغالبة
الطواري ، واشتركا في تجريدة مصر خير من بقائها في الحجاز

وكذلك فاذا انتقضت هذه الخطة لا يمكن ان تضمن موثونة
الفرقة فيها سواء من البرام من البحر وهناك تكون النازلة لا محالة
ولذلك يجب الاسراع بانقاذها بحجة تجريدة مصر . على انه يرجى
ان تكون رغبة امير مكة بمشاركة الحملة ناشئة عن نية حسنة وان
تعنى اثار البرودة القديمة بما يعامل به من الحرمة والثقة من الحكمة
واصالة الرأي ان تمسك بهذه القواعد ونحسن معاملته ونجل رأيه
ونوجه انظار موظفي الحجاز الى مثل ذلك

فاستحسنت هذه الراء وقرر ان لا يبقى في الحجاز الا لواء
ضعيف وان يبرح قائد الفرقة مكة للاحتشاد في معان والاشترك
في تجريدة مصر وقد ابلى الامير انهم يتشرفون بتفويض قيادة
التجريدة اليه فاجاب ان الافضل عنده ان لا يبرح مكة ليدافع
عن الخطة الحجازية اذا اعتدى عليها الخصوم ، وسير نجله عليا
وفريقا من المجاهدين ينضمون الى فرقة الحجاز في تجريدة مصر .
وفي ١٥ كانون الاول غادرت فرقة الحجاز مكة وفيها
لواءان من المشاة وطاريتان جبليتان وفوجان رشاشان وفصيلة
صحية والفأجندي والمجاهدون بقيادة الامير علي .
وقد احتشدت هذه القوى بعد اسبوعين في المدينة المنورة
والتحق بها كتبتان كانتا لدى المحافظ الا ان الامير عليا فضل

البقاء في المدينة للدفاع عنها، فاجيب سؤله ولم يجدوا اي فائدة في اكرامه على العدول عن فكرته او الامساك عن سفر فرقة الحجاز ، ولو جرى شيء من ذلك لعجل بايقاد النار ولذلك اكتفي بما اورده من العلل في هذا الموضوع . وضرب وهيب بك في الشمال وبدأت فرقة الحجاز تحتشد في معان في اول كانون الثاني وتم احتشادها في ٨ منه وتحلف الامير علي في المدينة مع المجاهدين الذين معه

ومضت الحكومة العثمانية والامارة الجليلية في براز سياسي من ذلك الحين الى ان اعلنت الثورة وكانت الامارة الجليلية تأتي غالباً في جميع ادواره .

وما خروج الفرقة من مكة وبقاء الامير علي في المدينة الا اثران من خطة مرسومة دبرت من قبل وتكلمت صحيفتها الاولى بالنجاح فتبنت الامارة وطأتها في مكة والمدينة وصفا لها الجوز في الحجاز ودانت لها الامور .

ويفهم ممارونه صحف اوروبا في الآونة الاخيرة انه بعد ان قررت الحكومة العثمانية دخول الحرب في صف الدول الوسطى ، عقد شريف مكة مع بريطانيا معاهدة باسم العرب تقضي ان يجارب الشريف الاتراك في جانب البريطانيين ولم

نكن مطلعين على هذه المعاهدة يوم عقدها وما ذا كنا نستطيع
صنعه لو اطلعنا عليها؟ . فلم يكن يسعنا غير تجاهلها ، وان
كان سير الامور ومجرى الحوادث يدلان على وجود شيء من
ذلك . وقد هجم الاعراب على بحارة « امدن » الالمانية في
نوجهم من (ايت) الى جده وبعد ان قاتلوهم يومين تراجعوا عنهم
بامر موظفين ارسلتهم الامارة الجليلة فكان الابدى التي هيأت
هذه الحادثة ارخت عليها السدول عند مشيئتها

وقد اعترض بعضهم قائلين فيما بعد : لو بقيت فرقة الحجاز
في الحجاز لما شبت نار الثورة وقد اسلفنا الكلام على ان
الفرقة ليست من المنعة بحيث تتمكن من عمل كهذا ولا ازال
مصرأ على رأبي بان سحب فرقة الحجاز من الحجاز عمل موافق
لفن التعبئة بل اني ازيد على ذلك قائلا انه كان ينبغي سحب
جميع القوى العسكرية ليس من الحجاز فقط بل من اليمن
وعسير وجمعها في الآستانة او سورية وكان فيلقان مبعثران في
هذه الاتحاء وهما اقل من ان يدفعها عنها خطر عدو اجنبي واكثر
من ان يستغنى عنهما في ميادين حرب اعظم منها .

ولما كان مستقبل الدولة العثمانية معقودا على ما نتجته الحرب
العامة فمن الحكمة وسداد الرأي ان نجتمع قوانا في الميادين التي

تحرز بها النتائج الحاسمة ولم يكن في مقدور الجيش العثماني ان
يقاتل في كل ربوع المملكة الفسيحة قتالا مقرونا بالظفر ، واذ
فزنا في الحرب العامة تيسر لنا ان نسترد اليمن والحجاز وعسير
فيما لو اضعناها ، واذ كنا من الخاسرين في الحرب فاي
فائدة لنا من الاحتفاظ باليمن والحجاز وعسير ؟

وما اكثر وجوه المطابقة بين الخطط التي اتبعها قدماء
العثمانيين وشيوخهم في الحرب الروسية سنة ١٢٩٣ = ٩٤ وبين
بعض الخطط التي وضعها شبان الاتراك في الحرب العامة سنة
١٣٣٠ = ٣٤ التي قادوا فيها المعارك وخصوا الوقوع على احدث
قواعد التعبئة العسكرية .

ففي سنة ١٢٩٣ كان مجهزا للقتال نحو مليون مقاتل الا ان
الميدان الذي ينقضي فيه الامر ويبرم وهو ساحل الدانوب لم
يكن على طوله الا نحو ١٨٠٠٠٠ من المقاتلة وقد اهملت قوى
جسمية بحجة المحافظة على الامن الداخلي وامثالها من الحجج في
البوسنة والمهرسك وكرييد ويانيا وطرابلس الغرب وادرنه
واستانبول ومكدونيا وبلاد العرب . وكان الجيش العثماني لما
استمر القتال في الحرب العامة موزعا مثل هذا التوزيع تحت كل
كوكب فكان من ذلك تبديد قواه والاسراف فيها او تفريق

شمل جموعه وفك عراها في سبيل منافع كثيرة اللبس والشبهات
من حيث تزجية^(١) الجيش كحملة القناة وهجوم العقفاص وتجمير^(٢)
الجند في اليمن والحجاز وعسير .

ومن جملة الاعتراضات التي وجهت قولهم لماذا لم يؤخذ على
يد الشريف في الايام المساعدة ؟ ألم يكن من الهين الرجوع الى
احدى الوسائل التي طالما رجع اليها اجدادنا وتوسل بها عصا
الاتحاديين في عصرنا ؟ اولم يكن بذلك حقن دماء كثيرة ؟ وهذا
الاعتراض لا يخرج عن اعتراضات العامة وآرائهم ! اذ كيف ينكر
اخلاص امير لبي اشارة الخليفة الاولى قبل سنين واسرع لانجاد
معقل سلطاني حصره العصاة ؟ وما اقمح تلك الوسائل واسوأها -
ولا سيما ايام نودي بالجهاد المقدس ! واي امير عربي يثق بكلام
الترك وعهودهم بعد ذلك ؟ والوفاء من شيم العرب التي لا يوثر
فيهم شيء مثلها ولا يقع من قلوبهم موقعها وتقتضى الذمام يقدح
في جوارحهم ناراً من الحقد لا تحبو ابد الدهر . واذا اغفلنا كل ما
نقدم من العمل والاسباب ، فهل مثل ذلك العمل يحول دون
انتقاص الحجاز دائماً ابداً ؟

(١) زجيت الشيء تزجية : اذا دفعته برفق

(٢) تجمير الجنود : ان تجمسهم في ارض العدو ولا تقفلهم من الثغر

واني اعتقد اعتقادا لا يخالطه شك ان شخصية الشريف
 واولاده طبعت على هذه الثورة بصورة واضحة كل الوضوح وان
 مظالم جمال باشا ومغارمه عجبت في ايقاد الفتنه واوت الشريف
 حسيننا حجة ظاهرية بينة لامراء بها امام العالم الاسلامي والعربي
 تبرر انتقاضه ولكن اسباب ثورة الحجاز عندي ترجع الى
 امور اخفى ودقائق ابعده غورا ، وياتي في مقدمة هذه الاسباب
 موقف الحجاز الجغرافي وتليه مرامي العرب القومية . فما
 الأشخاص بين هذه الاسباب الضرورية الطبيعية الامتلاء ثانياة .

فالبلاد الحجازية المقفرة تعيش من الحجاج والحجاج
 يأتون عن طريق البحر ، والسكة الحجازية لا تكفي لنقل ما
 يعيش به الحجاز وما يلزم للدفاع عن سوريا وفلسطين في آن
 واحد ومتى حصرت الحجاز فان المجاعة الشديدة واقعة بها لا
 محالة . ولا يمكن ان تشبه باليمن وعسير تلك البقاع الخصبة
 الخضرة التي يمكن لاهلها ان يجدوا موارد عيشهم من غير ان
 يوالوا بالحصار الذي يضرب عليها .

فيتين مما تقدم ان دخول تركيا الحرب في صف الدول
 الوسطى ومحاصرة الحلفاء اياها لا يمكنان الدولة العثمانية من
 اسعاف الحجاز بالقوت والغذاء من طرق البر فليس للعربان

الذين تعضهم المجاعة بانيابها الا ان يمدوا بصرهم الى السفن التي تجوب البحار مشحونة باكياس الدقيق والارز فتستهوهم خيالها الخلابه وتضطرهم الى التسليم كما تسلم القلعة التي تنفذ مواردها ولما لم يكن في وسع الاعراب اشتراء تلك الارزاق فلا بد لهم من الازعان للشروط التي تعرض عليهم ولا يمكن الجهاد مقدس ينادى به في الاستانة ان يكون له تأثير معنوي يكفي للشفاء من داء المسغبة^(١) والحاجة الشديدة وليس لامير في مكة كائننا من كان ان يصد الاعراب البداة الجفافة عن القيام بعمل كهذا .

وهذه البراهين جلية ليس وراءها مقال للقائل فنحن نتساءل لماذا اغفوا (الثلثة) لما جردوا السيف ولم يعنوا النظر فيها وهي على ما هي عليه من البساطة والوضوح ؟ لاجرم ان السبب يرجع الى نقص معارفهم الجغرافية .

ودع ذلك فلا ينبغي التغالي بتقدير المعونة العسكرية التي قدمتها هذه الثورة الى جيوش بريطانيا من حيث التعبئة وتزجئة الجيش ، فان المرشال « اللنبي » هو الذي كسر في فلسطين الجيش العثماني واقتصرت قوة الثائرين في اطراف معان

(١) المسغبة : المجاعة

على مقاتلة قوة امكسها الدفاع ببسالة عن ٨٠٠ كيلومتر من
سكة الحجاز نحو سنتين متواليتين . وهذه القوة تعد بضعة
آلاف من البندقيات اذا استثنينا حامية المدينة . ولكن لتأثيري
الحجاز في ميدان فلسطين تأثيراً آخر غير مباشر باكراههم الترك
على حبس وسائل نقل كثيرة في السكة الحجازية لاجل محافظة
المدينة المنورة والسكة الحجازية نفسها . ووسائل النقل محدودة
في هذه السكة فكان من ذلك ضرر بالغ حده في مواصلات
فلسطين . واصبحت الفرق العسكرية التي توّمتها مضطرة ان
تمشي على اقدامها مئات الكيلومترات فتصيبها الخسائر الكبيرة
قبل ان تدخل صف القتال وكأنما دخلته لانها قادمة من
ساحات حرب اخرى استنفدت قواها .

فمن الواضح ان نقل الارزاق والمهمات الى ساحل فلسطين
اصبحت تعترضه عقبات شديدة بسبب المواصلات مع الحجاز ،
والنتائج التي ادركها الثائرون في هذا الشأن هي موضع خطأ
المعسكر الهربي العام اكثر مما هي موضع مجد ونخار له لانه لم
يبرح مثابراً على الدفاع عن سكة الحجاز . ومن الخطأ الفني
الذي لا يغسل عاره والبساطة العقلية التي ليس لها حد
الاصرار على ركوب . تن العناد في عدم الاستفادة من الخط

الضيق الوحيد الذي يمكن الاستفادة منه في الدفاع عن فلسطين البعيدة عن قاعدة الاعمال العسكرية الوف الكيلومترات في الوقت الذي مد البريطانيون سكة حديدية كاملة للهجوم على فلسطين غير مكتفين بالسيادة البحرية التي هي في قبضتهم . ويمكن اسناد هذا الخطأ الفاضح الى الميول الدينية التركية التي لم تأذن على الاطلاق باخلاء الحجاز ولذلك كانت الخطة التي اتبعت خطة تعبئة دينية لاتعبئة فنية عسكرية . والتعبئة التي تعتمد على العقل والحساب لاتستطيع تحمل السياسة والعواطف واذا تحملتها واصفت لها انتقمت منها شر انتقام

*
* *

كانت كتائب فرقة الحجاز المحتشدة في معان تعزز بصفوة من جنود الترك لانها ضعيفة وقد انضم الى هذه الفرقة سرية متطوعة الدروز التي استنفرها الامير شكيب ارسلان وتولى قيادتها وسرية خيالة الاكراد التي جمعها عبد الرحمن بك اليوسف وسرية المتطوعة من مسلمي البلغار وسرية المتطوعة ايضا من خيالة الشركس

وسميت القوة التي الفت على هذه القاعدة بتجريدة الحجاز فسارت الى قلعة النخل وكان يراد ان تنجه الى السويس

ونتقدم الى القنائة وثلثحق بالتجريدة العامة ولم يكن من المتيسر
تدارك الاباعر لان التجريدة العامة نفسها كانت تجدد عقبات
كوودة في هذا السبيل .

وكانت قيادة الجيش ترجو ان تأتي تجريدة الحجاز
ومعها ما يكفيها من الاباعر فساء فألها وخابت آمالها لما رأتها
مقبلة وليس لديها من وسائل النقل الا الهين اليسير .

وسياتي معنا ان تجريدة الحجاز لم تصل الى القنائة
للاسباب السالفة ، وقد تأخرت عن الفيلق الثامن وحمل تاخرها
قائد البريطانيين على الظن بان مهاجمة الاسماعيلية لانهكون
قبل الانتهاء من تزجية الجيش وتعبئته باسره فلم يحسب حساب
الهجوم في الوقت الذي قام به وكان في ذلك نوع مظهرة
عسكرية مفيدة



٦ - من دمشق الى بيت المقدس

مغادرة دمشق - القدس - صفحة من

تاريخها القديم - ابراهيم وموسى - استقبال

القائد العام - تقسيم المعسكر

برح معسكر الجيش دمشق بعد حفاوة واکرام نفوقان

حد الوصف وسار بنا القطار الى محطة « سبستيا » وهي تأتي

بعد محطة « سيله » التي كان ينتهي بها قطار العساکر ولم يكن

الخط بينهما كافيا لتسيير الجنود وقد تم انشاؤه منذ عهد قريب

وذهبنا من سبستيا الى القدس في السيارات والسماء تجود بوابل

مدرار ولما صرنا الى القدس وهي المرة الاولى التي قدمتها كنت

غارقا في بحار التأمل مسترسلا في تذكر تاريخ هذه المدينة

الذي يرجع في قدسيته الى مولد التاريخ ويحتفي في سطور ايامه

المتقدمة . تذكرت ابراهيم ويعقوب وموسى الذي دعا قومه

الى ارض الميعاد ولم يتيسر له رؤية ذلك اليوم ، وتذكرت سليمان

الذي بلغ الاسرائيليون في ايامه اقصى مراتب الجاه والاقبال

وتذكرت بعد ذلك فتوحات الآشور بين والفرس وجلاء

اليهود وسلبهم واعمال السيف فيهم ، وحكومة الرومان ومناقب

السيد المسيح والقائد « تيتوس » السفاك الذي ضبط القدس
واحرقها واعمل السيف في رقاب اهلها ، وتذكرت عمر ابن
الخطاب الذي جاء القدس من الحجاز ممتطيا بعيره ففتحت له
ابوابها ، وتذكرت حروب الصليبيين وصلاح الدين الابوي
مثال الوفاء .

اوفينا على القدس بين الخيالات السانحة والغيوث المنهزمة
وهي المدينة الصخرية اليابسة المقفرة الاطراف التي ليس فيها
للشاربين غير ما يجمع من مياه السماء ولم يكن لها من المحاسن
ما يستوقف الانظار سوى ان المعتقدات التي تأصلت في
اعماق التاريخ جعلت لها في كل نفس منزلة لاتداني وخبائتها
في ملاءة من الطالسم تسحر العيون وتستهوي القلوب ،
فسورها الرفيع المحكم الشرفات كأنه المخرم والمفوف^(١) وحجارة
المسجد الاقصى اعظم مساجد المسلمين نثلو علينا فصـولا جيدة
من التاريخ الاسلامي ونعيد اينا ذكراها . وقد كتب على قطعة
من الدمقس الاحمر بالطراز الابيض قوله تعالى «

« ادخلوا مصر ان شاء الله امنين »

ياها من كلمة مررنا من تحتها وتحدرت اينا منها ذكرى

(١) مفوف كعظم رقيق اوفيه خطوط بيض

حوادث مرت قبل خمسة او ستة آلاف من السنين فافعمت قلوبنا
عواطف دينية . وكانت تقدمتنا سيارة القائد العام فلم نحضر
الاستقبال ولم نشاهد غير تواليه وهو اديه ^(١) كما تشاهد معالم زينة
بعد مضي يومها . ونزل المعسكر في الفندق الاكبر ولم نلتق
بالفيلق الثامن لانه سافر من قبل الى النجاء بئر السبع
مكشنا في القدس ولم يكن تهيأ لمعسكر الجيش ان يذهب
باسره الى الصحراء بسبب ما يعترضه من الحوائل في النقل
والمعيشة ولم يكن قد ابقى له غير قليل من الابعار ولذلك قسم
المعسكر الى ثلاثة اقسام خلف في القدس القسم الثالث المؤلف
من قيادة المعسكر والاوراق وادارة البريد ومستشار العداية
وامثال ذلك من ارباب الاعمال الكتابية وقرر ان تقوم المقدمة
في ٤ شباط وهي القسم الاول وتؤلف من القائد ورئيس اركان
الحرب وثلاثة من ضباط اركان الحرب واثنين من المراقبين
وثلاثة من ضباط الاوامر وثلاثة من الضباط المحققين وواحد
من جماعة الفرسان و ٢٠ هجانا . ويقوم بعد اسبوع الفريق الثاني
من المعسكر وهو مؤلف من رئاسة الصحية ورئاسة البيطرة وادارة
البرق وغير ذلك .

(١) التوالي الاعجاز ومن الظعن واخرها واقبلت هوادي الخيل اذ ابدت اعناقها

٧ - صحراء التيه

الامريائيون وموسى - صحراء سيناء والغزاة
المصاعب التي لقيتها التجرد العثمانية فيها - خطة
وصل الهند بافر يقيا من البر - اقليم سيناء
تقسيمها وحدودها - الزوابع فيها - قلة الماء
وندورة المطر .

يحتفي تاريخ الصحراء في ظلمات القرون الاولى ويذكر
بان ابراهيم اختار نضحية ابنه في مكان بئر السبع وفيه التقى
سليمان ببلقيس وفرشت ارضه بالذهب .

كانت تمر القوافل بصحراء التيه في طريقها الى مصر وفلسطين
وقد باع اخوة يوسف اخاهم من احدى هذه القوافل ولما
اشتدت السنون في فلسطين واستوزر عزيز مصر يوسف
استدعى ابويه واخوته فانزلهم بين « القاهرة » و « بورسعيد »
وقدم الاسرائيليون الى الفراعنة اموالهم ثم مواشيهم ثم دخلوا
في رقهم لاجل ان يتناولوا من الغداء المدخر ما يكفيهم وقد
تكاثروا بعد وفاة يوسف كل التكاثر وبذل الفراعنة قصارى
مجهوداتهم ليحولوا دون تكاثر شعب غريب في بلادهم .

عاش الاسرائيليون في ذلة الاسر الى ان قبض الله موسى

فكان له الفخر والفضل بانقاذهم واحداث امر عظيم من اجل الامور التي عرفها التاريخ . وقد خرجوا من مصر على الروايات الاسرائيلية بعد ان مكثوا فيها نحو مائتين وخمس عشرة من السنين وهم زهاء ستمائة الف . وكان طريق بحر الروم اقصر الطرق الى فلسطين .

ولعل موسى الحكيم رأى ان هذا الشعب الذي الف المذلة والاسر قد يفضل الرجوع الى مصر على مناصبة الفلسطينيين القتال فقاده الى الجنوب الشرقي اي الى منتهى البحر الاحمر من جهة الشمال حيث مدينة السويس اليوم . ويغلب انه عبر من هذا المكان في اثناء الجزر ، وافرغ على طور سيناء في ستة اسابيع فاعترضهم العماليق القاطنون بين بئر السبع وبحر لوط ولكن الاسرائيليين هزموهم بما لهم من الفضل في العدد واتقان اصول الدفاع وهذه هي المرة الاولى التي انشأ فيها موسى اسس الاوضاع الاجتماعية والعسكرية فقسم امته الى عشرات ومئات والوف وولى على كل فرقة نقيبا وغادر طور سيناء بعد ايام ومضى الى جنوبي بحر لوط . ولما استقر بالمكان الذي قصد له بث اثني عشر عينا من الاسباط الاسرائيلية الاثني عشرة في فلسطين فعاد العميون بعد اربعة ايام يوما يتحدثون

ببركة ارض الكنعانيين وخصبها وشدة مراسم اهلها فجن قوم
 موسى عن الهجوم وعوقبوا على ذلك بان يتيهوا اربعين سنة
 في الصحراء فعادوا اليها ومكثوا فيها ثمانى عشرة سنة .
 كان موسى في اثناء هذه المدة يغالب اليأس والفتور ويقنع
 كل انتقاض بنجم قرنه الى ان تغلب بعلو همته وصلابة عزمه
 على كل تلك العقاب وكان جل ما يرمي اليه ان يبعث في
 الاسرائيليين جيلا جديدا ويستولي على ارض الكنعانيين ويرد
 قومه الى اوطانهم على ان الذين قدموا من مصر كانوا كثيري
 العدد الا ان فيهم الجبناء والمعتلين والشيوخ والضعفاء فلا يتيسر
 على الاطلاق ان يؤلف جيش فاتح من جماعة كهذه ولم يكن
 بد من الاصطفاء فعوقبوا في الصحراء على مخالفتهم الاوامر
 الالهية وصفوا وهذبوا واضمحلت الذرية التي خرجت من
 مصر في هذه السنين الثمانى عشرة وذهبت شيئا فشيئا وقام مقامها
 جيل لم يالف ذل الاسر ولم ينزل منازل الهوان وحينئذ قر
 رأي موسى على مباشرة عمله والمضي في سبيل قصده مرة ثانية
 وضرب في طريقه الى الشمال في وجهة بحر لوط .
 وفي اوائل السنة الاربعين من مغادرة الاسرائيليين مصر
 وقف جيشهم في مكان لا يبعد كثيرا عن موقفهم السابق وكان

عليهم ان يروا بمملكة العيدوميين ليدخلوا ارض الكنعانيين وهي
في جنوبي الخط الممتد بين غزة وبئر السبع وبحر لوط الا ان
ملك العيدوميين لم يسمح لهم باجتياز بلاده فاختار موسى ان
يذهب الى الجنوب ويمر بوادي عربة وهو بين خليج العقبة وبحر
لوط ويذهب الى الشرق ويمر من وراء الشريعة بين اراضي
بطراو الكرك ويتقدم الى الشمال ويدخل فلسطين من جهتها
الشرقية . وقد نجح في انفاذ هذا الرأي الذي فضله على محاربة
العيدوميين واجتياز بلادهم عنوة .

مضت العصور المتعاقبة وصحراء سيناء مجاز الفاتحين بين
الشرق والغرب فمر بها الآشوريون والفرس والاسكندر الكبير
وغزة مصر في زمن عمر الفاروق وقد حاول احد قادة
هولاكو ان يخترقها في طريقه الى مصر فسقط قتيلاً في معركة
نشبت بينه وبين جيش المماليك الذي صمد له في وادي الشريعة
وغزا المماليك سوريا غزوات عديدة . ولا بد لصاحب السلطان
في مصر او في سوريا اذا اراد الاحتفاظ بسلطانه في احدهما ان
تكون الثانية في قبضة ملكه وقد نشبت المعركة الاولى بين
السلطان سليم والمماليك في جوار غزة وتوجه نابوليون من
مصر الى سوريا وحاصر عكا وهو يتبعي ان يستولي على آسيا

ويسود الاسلام فيها ، وقد قطع ابراهيم باشا المصري صحراء سيناء
وغزا سوريا والاناضول

وكانت كل هذه الجيوش ماعدا جيش موسى قمر بطريق
غزة والعريش ومنه نقل تابوت الاسكندر الكبير المرصع الى
الاسكندرية

اما السيادة البحرية فكانت في قبضة الانكليز لما غزا نابوليون
وابراهيم باشا سوريا وكانت في يد الثمانين لما غزا السلطان
سليم مصر ولم تكن سيادة لاحد في بحر الروم في اثناء سائر
التجهيزات العسكرية .

وقد انشئت قواعد بحرية في بيروت وصيدا وصور وكانت
تقطع الاخشاب من غابات لبنان لانشاء السفن

ومما يستحق الذكر علاوة على ما تقدم ان قناة السويس لم
تكن في سفر من الاسفار الماضية فبدل حفرها خطط تزجية
الجيش كل التبديل وجعل اساس السيادة البحرية متوقفا على
السيادة في مصر وقد امرت التجربة العثمانية ان تضرب في
جوف صحراء سيناء وتخرقها فقامت بما امرت به وعاجلت من
المصاعب والمشاق ما لم يسبق له نظير في تاريخ الاسفار السلفية .
فيظهر مما تقدم ان سيدنا موسى لقي من العناء الطويل

والعنت^(١) الثقيل ما لم يلقه احد قبل خمسة آلاف سنة وانه لم
يعهد مثال لتجريدة العثمانيين في اثناء الحرب العامة سواء من
اقتحام العقبات والشدائد ام من بذل العزمات والهمم الحارقة
ولقد اراد العثمانيون غير مرة ان يعيدوا الكرة على القناة
واتخذت سراياهم صحراء سيناء مجالا لها ومغدى ومرحا في
سنتي الحرب الاولين وقر رأي البريطانيين في سنة ١٣٣٢ على
اخماد هذه المساعي واحتلال فلسطين والامن على مصر من البر .
او قل بعبارة افصح انهم بدأوا يطبقون الفصل الاخير من
الخطة الجليلة التي تعزى الى (سيدسيل رودس) وهي وصل الهند
بافريقية الجنوبية من طريق البر .
ولذلك رأوا ان يمدوا على طول ساحل سيناء خطا عريضا
ويأتوا باقنية المياه

فلا جرم ان قرار بر يطانيا بمد سكة حديد وجر الماء بالاقنية
وهي صاحبة السلطان في البحر باسطولها وصاحبة السلطان في البر
بجيشها من جملة البراهين التي تدل على ما في صحراء سيناء من
المصاعب والاختار وما يحتاج اليه كل من يحاول قطعها - وان
كان بر يطانيا نفسها - من المجهودات والمساعي التي لاحد لها كما

(١) العنت : الوقوع في امر شاق

تدل على ما امتازت به القيادة البريطانية العامة من فكرة الحذر
والحيطة .

الأقاليم : لاجدال في ان صحراء سيناء من اسوأ البقاع وشر
المنازل في هذه الارض وهي غير آهلة بالسكان اذا استثنيت
ربوع فيها او هي قليلة السكان .

تحدها فلسطين من الشمال ووادي عربيه وخليج العقبة من
الشرق ووادي السويس من الغرب وبحر القزم من الجنوب
وتقسم هذه الصحراء باعتبار خط يمتد بين بئر السبع والاسماعيلية
الى قسمين متفاوتين فالقسم الشمالي رملي والقسم الجنوبي
صخري ويسمي الاول الصحراء الرملية والثاني الصحراء الصخرية .
وكشبان الرمل وجبالها في الصحراء الرملية وهي تهير على الاطلاق
من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ومعدل ارتفاعها ٥٠
متراً وقد تعلو على ذلك

ومثار الزوابع التي تكثر في سيناء من هذه الرمال التي
تنتقل في بعض الاحيان وقد كتب السائح السويدي « سوين
هدين » لما ساج فيها اثناء الحرب راكبا سيارة ان صادف كثيراً
رملياً يمشي على مهل

اما ارض الصحراء الصخرية فانها قاسية باسرها ولا يعوق

السهل منها سير الحركات العسكرية ولكن تعوقه جبالها الكثيرة
وقد اتبعت التجربة العثمانية الطريق الفاصل بين الصحراء الرملية
والصحراء الصخرية فكان طوراً رملانياً وطوراً وعثاقاسياً
ولم يكن في سيناء نبات نام ولا ماء جار ولم يكن فيها
غير الشوك والقتاد^(١) وحسك السعدان الذي ترعاه الابل ويصلح
لطح الشاي .

وبوازي القناة سد رملي في مسافة تختلف بين ٥ و ٢٠
كيلو متراً ويمتد من الشمال الى الجنوب ويختلف عرضه بين
٢٠ و ٤٠ كيلو متراً يعوق الحركات الحربية اشد تعويق
وقلما تمطر السماء وقد لا تقطر قطرة في بعض السنين واذا
امطرت فانها تنهر انهاراً فتملاً الوديان وتسيل القيعان وتأتي
في الغالب بغتة وتابس الودية في ايام اخرى ولا تبقى الا
صهاريج ماء .

وتكثر الرمال والزوابع وتشتد وظائرها فتغطي السبل ولا
يرى المرء ما امامه عن بعد متر واحد ويدخل الغبار في كل
مكان وتتعذر المحافظة على جلاء الاسلحة ونظافتها ولا يحول شيء
دون امتلاء افواه البنادق بالرمال التي تدخل الصناديق المغلقة

(١) القناد كسحاب : شجر صلب له شوك كالامر

وفضلاً عن زوابع الرمال فهناك الأعصار ورياح السموم
التي كثيراً ما تهب فتصيب الإنسان والحيوان وتفتح الجوفه
وتنشر رائحة كرائحة الحريق

وترتفع درجة الحرارة في النهار الى الاربعين والخمسين وتنزل
في الليل الى العشرة وتبلغ الصفر في الشتاء .

وما اعظم ضرر هذا الاختلاف واسوأ تأثيره في صحة
الابدان ولاسيما في الشتاء اذ يألف البدن حر النهار فيتأذى
كثيراً من برد الليل . اما ليالي الربيع والصيف فانها بذيلة رطبة .
ويتساقط الندى بغزارة فيسبب الامراض المعوية وغيرها .
ثم ان رياح السموم وما تنشر من رائحتها التي تشابه رائحة
الحريق قد تستمر ثلاثة ايام وتكون الليالي قليلة الرطوبة او
لا اثر فيها للرطوبة ، ويكون الفرق عظيماً بين حر النهار وبرد
الليل في غير هذه الايام كما قلنا آنفاً .

وصفوة القول ان صحراء سيناء جامعة لمساوي الاقاليم
الحارة والاقاليم الباردة . ويفتقر الذي يمر بها الى كسوة سكان
خط الاستواء وكسوة سكان القطبين الشمالي والجنوبي .
ويبهر نور الشمس العيون كما يبهرها لعان الرمال وينبغي صيانتها
من الغبار والرهج بالنظارات المسدودة الاطراف

وبالجملة فان صحراء سيناء تضر بالعيون اضرراً عظيماً ويحمل
ناموسها امراض العيون السارية المستقرة في مصر وفلسطين ،
والماء هو اندر الجواهر واوحدها في سيناء وماء اكثر الآبار
ملح وقد يكون اجاجاً . وتسبب البطائح^(١) كثرة الناموس
والذباب ولا يمكن التخلص من القمل في الصحراء ويقل اذا اشتد
الحر ، ولكن تزداد البراغيث والناموس . وتوجد في سيناء
حيات وعقارب واشباهها من الحشرات السامة

(١) جمع البطح : وهو مسهل واسع فيه دقاق الحصى



٨ - الى القناة

مغادرة القدس - السير المنظم في الصحراء - «الآن
جد الجد ١» - الخلاصة - الحفير - وادي العريش
الماء الماء ١ - ضباط الاحثياط - الابن - الموقف
الرهيب - الخبرتان - الجفجافة - حراسة الماء
مشور قائد الجيش - كتيبة الخيل - الانوار
الكشافة - نقل الجسور - السفن في القناة .

توجهنا من القدس الى بئر السبع بعد ان تناولنا في شباط
سنة ١٣٣٠ آخر طعام غداء فاخر في «غراتوتل» . وكنا
تخترق الجواد المزدانة بين صفوف الناس الواقفين لوداعنا حيث
يتمزج الهمس بالحنان الموسيقي ونحن نغذ السير^(١) بتنازعنا عامل
الطرب وعامل الحذر ، وكان يعرض في خاطري ان الذي
اشاهده ليس لنا وان العواقب غير مأمونة .

كان على مقر الجيش ان يتبع نظام الصحراء ويكون قدوة
في هذا الشأن ولذلك لم يأخذ احدنا معه اكثر من ١٥ كيلو في
حقيبة لاينفذ الماء الى جوفها وذلك علاوة على ما نحمله معنا
وتحملة خيولنا وقد سبقت الحيوانات الى بئر السبع من قبل .

(١) الاغذاء في السير: الاسراع

خرجنا من القدس وسرنا بملحها بين الكروم والجنان
والمعابد والاديرة ، ثم اقتفينا طريقا كثير الاعوجاج في ارض
صخرية وكان طريقنا مجلي تاريخ الانبياء بالسرهم وديوان
التاريخ المقدس الذي احتوته العصور . فمرت هذه المناظر والمشاهد
كلها امامنا مدة مسير السيارات . فمن « بيت لحم » مولد سيدنا
عيسى الى البركة التي انشأها سليمان ، الى خلبل الرحمن ثموى
سيدنا ابراهيم . وقد اخذت المشاهد تتبدل بعد خلبل الرحمن
وتستوحش شيئا فشيئا وظهرت لنا الارض اليابسة القاحلة التي
تسمى « عيدوم » وهي خط الفصل بين الصحراء وفلسطين .
ومضت بنا السيارة الى « بان » بين بئر السبع والظاهرية ، وكان
يصحبي رأفت بك « رأفت باشا » وقد ابتداء الظلام يمد رواقه .
وكان يخفق لواء عثمانى في سماء بئر السبع وصادف شروق
كوكب في جانب الهلال فراقنا هذا المنظر في السماء الزرقاء
فوق الوادي الضيق القائم بين صخور « عيدوم » وجبالها الموحشة
في طريق مصر . ثم اختفت هذه السانحة السماوية وراء المناظر
الجبالية الرائعة التي اعترضت سبيلنا فبقينا وحدنا في الظلماء ،
وكنت ارى ان للمصر بين والكلدانين الحق في ولعهم بعلم
الفلك وشاهدنا نخيم كتيبة من العمال فسألناهم ان يعيروننا مصباحا

لنصلح السيارة فأرسل لنا مصباح ومعه طعام ظري ولم يكن الطريق بين بئر السبع والقدس موافقا لسير السيارات بل ان العجلات لم تكن تتجاوز خليل الرحمن . ولما كانت نقل مدافع الصحراء امرأ الأبد منه مُهد الطريق بين خليل الرحمن وبئر السبع . وكذلك فان الأبل تأمن من الزلوق اذا سارت في طريق ممهدة وهي حاملة المؤن والذخائر

وقد تناولنا الطعام باشتهاء ولذة ونحن نشاهد القمر الجانح الى الغروب آسفين عليه وكان يخجل الينا ان هذه الكتبية من العمال سعيدة غنية بما لديها من الوسائل الكثيرة كالحيام والمياه والوقود والمآكل وهي خارجة عن منطقة الصحراء التي تتبدى من بئر السبع . افلم يعرض ياترى في خواطر رجال تلك الكتبية ما ستصير اليه في الغد حالة ضباط ار كان الحرب الذين خدموهم فيغتبطوا بما هم فيه ؟

وكان بيننا وبين بئر السبع مسافة ١٥ كيلو مترا وقد خيم الظلام وغاب القمر ولم نصل بئر السبع الا متأخرين لانتنا سرنا سيرا بطيئا كيلا نضيع معالم الطريق الطامسة الا قليلا في تلك الارض . وبئر السبع من اعمال القدس وفيها مسجد جميل ومبان مشيدة وسوق وهي تعد زهاء ١٠٠٠ نفس .

وفي صبيحة اليوم الثاني اخذ معسكر الجيش يسير سيرا
منظما بعد ان قطع المرحلة الاخيرة من عالم المدينة والحضارة
فمشى قائد الجيش والى جانبه رئيس اركان الحرب متباعدًا عنه
خطوة الى الشمال وامامه فارسان بمسافة مئة متر ووراءه مرافقان
في مسافة ست خطوات ويأتي بعدها امراء المعسكر وضباطه
اثنتين اثنتين بمسافة خمس عشرة خطوة على حسب مراتبهم
وسبقهم ويتلوهم فرسان المعسكر وسائر اوضاعه .

وبعد ان غادرنا بئر السبع جاء فشييعنا قائد الحدود « بهجت
بك » الزعيم اركان الحرب ، فدنا الي وقال : « الآن بدأت
الحقيقة تواجهنا » وكنت اتذكر هذه الكلمة كما سحنت لها
مناسبة ، وانها الكلمة بليغة في تصوير حالنا .

وقد وصلنا الى المنزل الاول في « الخلاصة » بعد ثلاث
ساعات وهنالك بئر مستنيط حديثا وخيام منصوبة وراية
مركزية ولوحة مكتوب عليها « منزل الخلاصة » وكان علينا
ان نأكل ههنا ونستمر في مسيرنا الى حفير العوجة وعلينا ان
نقطع مرحلتين في اليوم ونناولنا اول طعام من طعام البادية
وهو بقسماط وزيتون وتمر ، ولم نصدق بسهولة ان بيننا وبين
« غراندوتل » التي تناولنا فيها الغداء الشهي في مثل هذا الزمن

مسافة ٢٤ ساعة فقط ، فتبددت خيالات المدينة امامنا بسرعة فائقة ورأينا في هذا المنزل مضرب قائد الجيش ممزقا وفي جانبه ضابط احتياط وكننا راعينا في القدس وفي بئر السبع نفسها منازل السبق والتقدم ولم نتساهل في تعيين المراتب ، فأبادت صحراء سيناء في لحظة واحدة كل هذه الرسوم والتقاليد .

وبعد ان انتهينا من طعام غير سائغ تجرعنا شربة من بئر خلاصة بدلا من القهوة ولم اتم قسمتي من البقسماط في طعام الغداء فاخذت اتمها على ظهر الحصان وقد برعت في آخر الامر بأكل البقسماط وكنت اكسره قبلا باسناني حتى كسرت احدي ثناياي ذات مرة ، ولما كسرت تذكرت قول صاحبي : الآن جد الجد ولم يكن لدينا طبيب اسنان يداويها لان ملاك الصحراء لا يسمح بوجوده = اذ هو في الصحراء من النفائس والكليات = غير اننا لانمكث في الصحراء زمنا طويلا وامامنا مصر ونحن في طريقنا اليها وكل شيء فيها . . . امسينا في الحفير وهي آخر مركز للعثمانيين قبل الحرب وكانت مركز ناحية ومركز سرية نظامية وفيها ثلاثة ابنية مشيدة ووراءها بقليل الخط الذي يفصل مصر عن تركيا وفيها ايضا منزل ومستشفى وانبار وذخيرة ومركز برق وماء عذب .

ولما اصبحنا قصدنا وادي العريش ، وتأتى بعد الحفير منازل
ام شيخان ، الهلال ، الابن ، بئر حامه ، الخبزة الاولى ، الجفجافة ،
الخبزة الثانية ، وتبعد كل واحدة عن الثانية ٣٠ كيلو متراً وقد
قطعناها بالعدو السريع وخيما في وادي العريش بين ام شيخان
والهلال وكانت خيالاتنا ترقص على الرمال في اثناء مسيرنا
مهودين ^(١) او مسرعين .

واسترحنا في ام شيخان وفيها مركز برق وانبار وراية
ولوحة ومنارة ومضرب وقائد منزل وموظف انبار وموظف
اخبار ولكن لم يكن فيها ماء ، وكان في خبطة الصحراء ان تستحدث
هذه المستحدثات في كل منزل وكأنها موجودة من القدم وكان
في المنارات المشتعلة موضع سلو للضباط والجنود وقطرات
الاباعر التي قضي عليها ان نواصل السير بالسرى .

حلمنا مساء في «وادي العريش» وكانت تقدمتنا التجريدة
واخذت اخذ القناة وقد مهدت الارض الرملية في جوار وادي
العريش لاجل نقل الجسور والمدافع الكبيرة وانتفع من الاشجار
الشائكة في تمهيدها ، ولم يكن ليصدق ان خميسا عرمرما
يستطيع ان يمر من هذا المكان . وكنا نشاهد هنالك الاباعر

(١) القهويد : المشو الرويد مثل الدبيب

المثناة في حالة الاحتضار واستدلنا على مواضع الماء في العريش بما كان لدينا من الخراط والعلائم فوصلناها وقد اعيانا التعب واجهدنا العناء ونزلنا عن خيولنا لنزفه عنها .

اما الماء فلم نجد منه الا اليسير في قعر الصهريج مملواً بالديدان ، وقد كان في الحفير ماء بئر فوقفنا على طرف الوادي ولم يجرأ احد منا على الشرب من هذا الماء القدر . وفي وادي العريش هلك قائد (هولاكو) ولم يكن في استطاعتي ان اتلف على هولاكو ولا على قائده لاني كنت من الماء في شغل شاغل . وقد ذهب الى الماء المرافق صلاح الدين بك وبيده وعاء يحاول املاءه وهو من اشدنا عزما وابعدنا همة فلما رآه رئيس الصحة في الجيش نادى : ان الماء غير شروب فينبغي ان يغلى ويوضع في « اوعية الماء » ، فنظر صلاح الدين بك الى رئيس الصحة نظرة المتوكل الذي لا يبالي وقال : فلنطبخ الشاي اولاً . وهذه مقايسة بليغة بين الحقائق والنظريات فاكتفى الرئيس بهذا الجواب وقام بما عليه من الوظيفة الادبية ولم يكن يجهل استحالة انفاذ ما امر به .

صفي ماء وادي العريش ووزع عند الصباح ولم يحتج احد الى السوء آل عنه فيما اذا كان فد غلي ام لا . ولما وقفنا بعد ايام على

منازل المياه المالحمة اخذنا نفقش عن هذا الماء ولكن لانجده
كان الوادي يتضايق بين الجبال في المكان الذي كنا به
وكان لهذه الجبال الوان مختلفة ولها ارض صخرية وكانت شمس
الاصيل تسيل على الصخور فتصبغها بالوان مختلفة ، وابتدأ برد
الليل القارس ورأيت قطارا من الابعار يقترب منا بقيادة بدوي
يحدو حداً لا يفهمه غيره وغير ابله التي يسوقها الى الورود
وان في الابل وصاحبها عبرة لنا ، انهم يعالجون الامور
معالجة فعلية وقد وردوا الماء الآسن بدون تردد امان نحن فقد كنا
نتنظر معجزة من السماء كمعجزة موسى لما ضرب بصاه الحجر
فنفجرت اثنتا عشرة عينا

فانظر الى هذا الحادي كيف لم يستغرب ظهورنا في هذا
المكان الموحش لانه من اناس الفوارؤية الحوادث الفجائية وهم في
بداوتهم يتجاهلون ظهور جيش من غير ان يأتيهم نبا عنه وكانما
كانت بيننا وبينهم معاقدة فلا يدخل احدنا في امر صاحبه ، ولعل
ذلك الحادي جاء فسقى من مائنا بتأثير تلك المعقدة المظنونة
واقول من مائنا وهو في الحقيقة ماوه الا انه جاءت بالامس قوة
اكثر منه نفوذاً ومقدرة فبسطت سلطانها على كل المياه التي تمتد
بين بئر السبع والاسماعيلية . ومن ذلك الحين اصبح ماء وادي

العريش الراكد الآسن قاعدة منازل للجيش الزاحف
رقدنا في وادي العريش واستيقظنا مبكرين فسرنا الى
الابن واسترحنا في الهلال وهو منزل يشابه ام شيخان في نضوب
المياه وقد اكرم قائد المنزلة مشوانا ، ولعله رق لنا فاهدى الينا تمرا
كنا نختار احسنه وأطيبه

قاد المنازل في صحراء سيناء شبان الامة الاذكياء من ضباط
الاحتياط الذين غادروا بالامس قاعات الدرس ولم يبلغوا العشرين
من عمرهم ، وكانت الحاجة الشديدة تدعو اليهم وما اكثر حاجات
الجند الذين يرون بهذه السبل فلا غرو اذا تهادوا في اعطاف
الخيلاء والفخر وظهرت عزائمهم ومواهبهم في هذه الصحراء وهم
لم يارسوا اكثر من اسبوع او شهر او سنة وكانهم قطعوا من
مسافات الحياة اكثر مما قطعه ابراهيم .

فيا ايها الشباب القيم الذي هو رجاء الوطن وموضع آماله !
ان تفانيكم في صحراء سيناء يملأ قلوبنا فخرا وحرنا . ولقد كان
ينبغي ان تكونوا اكثر نفعاً وفائدة لهذا الوطن تتسابقون على ورد
المتون في سبيله .

وصلنا الى الابن في مساء السابع من شباط سنة ١٣٣٠ هـ
ومعظم قلب الجيش في (بئر حمامه) والفريق الاول في الخبرة الثانية

بقيادة الزعيم كمال بك ، وقد وافقت بئر السبع مقدمة الفرقة
العاشرة وما بقي منها قدام على الاثر واما تجريدة الحجاز فلم تكن
بدأت في مبارحة معان

وكان في الابن مفتش المنزل على رضا بك من اركان
الحرب وهو منزل مهم وان لم يكن فيه ماء . وكان هنالك
مستودع ارزاق ومستودع ذخيرة وخيام ومضارب وآخر مركز
للبرق وغير ذلك فتناولنا طعام المساء في خيمة عربية على مائدة
بسيطة ولم نبق تحت السماء ، وجاءنا البقسماط في ارق اطواره
مبلا في اطباق ، ووجدنا في قائمة الطعام بقسماطاً وحساء وزيتونا
وقمراً وشايا ، وقد اجتهد الجند الذين قدموا لنا الطعام ان يجعلوا
للمائدة منظره لطيفة تشابه ما في دمشق والقدس على طريقة
المنابذة ، وكانت روءوسنا منحنية بين جدران خيمة ضيقة امام
الشموع المضطربة ونحن نأكل بهدوء وسكينة ولم ينبس رئيس
اركان حرب الجيش ببنت شفة بل ظل ساكناً ساكناً وكانه
يقول في نفسه ان هذا السفر الذي لا فائدة ترجى منه ولا معنى
له من عمل فون كريس فاذا فرضنا المحال ونجحنا فيه فله الفخر
كله ، واذا لم نتجح فليرئيس اركان الحرب نصيبه من المسؤولية
وليس لجميع هذه المتاعب المبرحة غير هذه النتيجة ، ولكن لا يجوز

ان يشعر ضباط الاتراك بما اجدته في نفسي بل يجب التغرير بهم
حتى يفعل الله ما يشاء . وذلك ما تقضى به الوطنية على ضابط
الماني .

هذا هو السرفي صمت الرئيس غير ان القلوب نتشاهد
ولرب صمت ابلغ من كلام

اخذت افكر في الموقف واستملي خواطري تلك الحوادث
التي مرت امامنا تباعا فاتسعت في عيني مسافة الخيال وعظمت
في نفسي بيداء سيناء وتراءى لي حمل صناع الجسور من ادرنة
وحشد قطرات الابل وتذكرت ما لقيناه في التشيع والاستقبال
من الحفاوة والاكرام وسمعناه من دوي التصفيق والهتاف في حال
خاطري جولته في هذه الساحة التي لانظير لها والتي ترمي الى
المأساة الكبرى في غزوة مصر .

وبقيت الحرب قائمة في نفسي بين الحقائق والاحلام الى
يوم القناة الثاني فظوراً كانت تغلب الحقائق وطوراً كانت
تغلب الاحلام ، واكسني - ولا بد من القول - كنت اميل
الى التفاؤل والفضل لواقعة القناة في شفائي من هذه العلة فقد
بددت تلك الغياهب باسرها وتوافقت والحقيقة وجها لوجه ،
فيالك من يوم لم اشهد به تجريدة القناة التي ذهبت ضياعاً في

سبيل الاحلام الباطلة بل شهدت اضمحلال مملكة وافول نجمها
فلن اكون من عباد الخيال ما حبيت !

ولما بلغ معسكر الجيش الابن كان في حفير العوجة والداخل
والابن الداخل ١٠٥ اطنان من البقسماط و ٢٤ طننا من التمر و ٤ اطنان
من الزيتون وهي تكفي جيشا موعانا من خمسة وعشرين الفا ٩
ايام وذلك ماء - ارزاق الايام العشرة التي تحملها القطارات
القليلة وما يحمله الجنود انفسهم ، ولم يكن هنالك شعير

بقينا في الابن اسبوعا تعاطينا فيه بعض الاعمال ، وقد أمكن
تجريدة الحجاز ان تبرح معان متوجهة الى القناة بعد مساع خارقة
للعادة وكنا يؤسنا ان تبرح مكانها لكثرة ما كان يعترضها من
العقبات الشديدة في تدارك الابل واتبعت هذه التجريدة طريق
قناة النخل وهي تقطع خمس عشرة مرحلة على الاقل حتى تصل
القناة ولم يكن في هذه المسافة غداء ولا ماء وقد اجتلبوا من الحجاز
زمرة من حفار الآبار للبحث عن مكان المياه وتستنبطها للتجريدة
وغادرت مقدمة الفرقة العاشرة بئر السبع في ٨ شباط وهي
مؤلفة من لواء مشاة وكتيبة مدفعية ولم تكن انظمتها مشابة
لانظمة الفيلق الثامن ، وقد انشي فيها لواء للانتقال يحمل طعام
عشرة ايام وماء يوم واحد .

حظيت في الابن بالرقاد في مضرب على قطعة من الاديم
وكننا في سائر الاماكن ننام بين الرمال والتراب وتحت قبة السماء
وقد تمكنت ايضا من ان اجد صندوقا اتخذته منضدة

وكان منزل الابن مقرا ثابتا وفيه اعتدلت معيشة صحراء
سيناء قليلا ، وتلك المنضدة وذلك الاديم من مظاهر تحسن الحال
قنا من الابن في ۱۳ شباط سنة ۱۳۳۰ ووصلنا بئر حمامه
في ساعتين وهو داخل في منطقة منزل الابن . ولم تجاوز
الاسلاك البرقية الابن ، ولم يكن لدينا طيارة او برق لاسلكي
وامثالهما من الوسائط الحديثة ولم يبق غير الدلل لحمل البريد ففرقنا
في اعماق الجاهل والمهامه^(۱) وبعد ان استرحنا قليلا في بئر حمامه
استأنفنا المسير الى الخبزة الاولى ولم نرقد الا ساعات قلائل وكان
فيها بئر ماء في وسط الرمال المنعقدة اللينة .

نهضنا مغلسين^(۲) في اليوم الثاني ودرنا ساعات بين الرمال
لاننا لم نهتد الى الطريق وقد طمس الاثر الذي اقتفتة التجريسة
وغاب في الظلماء . ولما انشق جانب الفجر وجدنا انفسنا في الخبزة
الاولى وقد رسمنا دائرة في الظلماء حولها . وكثيرا ما نفع هذه

(۱) المهامه جمع مهمه : وهي المغازة البعيدة الاطراف

(۲) غلس : سار وقت الغلس وهو ظلمة اخر الليل

الحادثة الغربية في الصحراء اذا لم تنصب الاعلام وترفع المنائر
لهداية ابناء السبيل .

على اني كنت اقول في نفسي والحياء آخذ مني مأخذه :
ان تكون هذه الحادثة موضع فخر لغزاة مصر ، فاذا ضلنا في الخبرة
الاولى فكيف نخرج من العبء العظيم الذي اخذنا انفسنا
بالنهوض به .

ولما انجلي الدجى ترسمنا اثر الابل فوصلنا الجفجافة عند
الظهر وبينها وبين الخبرة الاولى مسافة ٣٠ كيلومترا وهي ارض
يابسة الاكفاف مقشعة الترى لا ماء فيها ولا نبات ولا حيوان
الا قليلا من القناد ومستحاثات^(١) الحيوانات البائدة ولم يكن فيها
ناموسة ولا ذبابة فوق ذلك ، ولكن فيها منزل يسمى الجفجافة
ولوحة منقوش عليها كلمة المنزل ويركز في جانب اللوحة في النهار
راية وفي الليل مصباح ، ولم يكن من فائدة هذه المنازل التي
لا طعام فيها ولا شراب سوى انها تبين للجند الذين يصلونها انهم
قطعوا مسافة ٣٠ كيلو مترا فيجلسون ويستريحون هنيهة من عناء
السفر وياتون على ما في حقائبهم من ماء وزيتون .

ثم غادرنا الجفجافة قاصدين الخبرة الثانية بعد ان استرحنا

(١) المستحاثات : بقايا الحيوان التي بنفدهاشي من المواد الترابية فتصير كالحجارة

فيها نحو ساعتين وقد قطعنا ثمانين كيلو مترا في ٢٤ ساعة بعد الابن وبيننا وبين الخبرة الثانية ثلاثون كيلو مترا . وهذه شقة بعيدة قطعناها في سيرنا ولم يكن لدينا من الزمن ما يسمح لنا بالترهث وكانت الغاية نقادنا وتجيتذبنا وقد اصبح الفيلق الثامن في جوار القناة ولا يمكن انتظار تجريدة الحجاز لان الارزاق تنفذ في المكث الى حين مجيئها .

ولذلك تحتم الاسراع بالهجوم على القناة ولم نلتق بمعسكر الفيلق الثامن لانه كان يحافظ على سبقه ايانا بمسافة مرحلتين وكأ انه يعمل على تجنب لقائنا ، وكأ انه يريد ان يبلغ القناة ويرتمي عليها قبل ان يبلغها معسكر الجيش الذي يرغب من صميم فؤاده الاشتراك بهذه الواقعة التاريخية

وهذا هو سر ذلك التهلك الخارق الذي يصح ان يشبه بالذين يتسابقون الى الهاوية .

اما الخبرة الثانية فهي بقعة من رمل انشئت فيها بعض المعاول للتحصن بها اذا هجم العدو . وفي جوارها مكان يقال له الخراب وهناك اطلال صهاريج عافية . فلن هي ؟ ولأبي مدينة متقدمة وحضارة دراسة ؟

ولماذا يقال لهذا المكان « الخبرة الثانية » ؟ اوليس من

المستطاع تعريف هذه الامكنة بالارقام اذا لم يكن لها مسميات؟
ولكن ما الفائدة من العناء في الاجابة على اسئلة كثيرة؟ ووما قريب
بجد القنائة امامنا فحسبنا ان نتساءل عنها.

وكان في الخبرة الثانية مجتمع مياه كانه بحيرة بقيت من
امطار تلك السنة وكانها اثر من آثار رحمة الله الصرفة التي
لانتوقع ، وقد وقعت القوي المتوجهة الى الاسماعيلية على خزان
ماء في وسط البيداء فقلت الحاجة الى قطرات الابل التي
تحمل المياه

لقد احسن الانكليز ظنهم بنا اذ قالوا اننا قصدنا هذا
المكان عن سابق علم ومعرفة بالماء الذي فيه على ان عثورنا به لم
يكن الا اثر الصدفة والاتفاق وخيف ان يكون الماء قليلا فيه
فتحتم القصد في انفاقه وصيانه من الاسراف فأمر بان يضرب
حوله نطاق من الحرس المدججين فلا يدنو احد اليه ولا تؤخذ
قطرة الا بأذن رسمي وقد تولى هذا العمل القائد سعد الله بك
من اركان الحرب « وهو احد مندوبي الترك الذين
عقدوا الهدنة » .

جرت السقاية على اساس منظم وقاعدة لا تختلف عن
قاعدة الصيارفة في انفاق الدراهم بمقدار او قاعدة الجراية في

توزيع المآكل والعدة في الذخائر، ولها شروط فيما يستوعبه
الوعاء واشباه ذلك

ولم يؤذن لغير الخيول بورود ذلك الماء، أما الأبل فقد
ذيدت عن الورود كل يوم . وهي التي تواصل دأبها ولا تذوق
طعم الراحة ولما تصل اطراف الماء تمد برقابها منظلة اليه ولا
تبيل غليلها بقطرة والماء محمول على ظهرها تطوي المراحل والمنازل
من غير ان يكون لها حق بوشلة^(١) منه فما اقسى الانسان وما
لوحشه !

ولما كنا نجد في معسكر الخبرة امر رئيس اركان الحرب
ان لا يغسل احد يده غير القائد العام ولا يتعجب من هذا
الامر بل يعد زائداً لان الضرورة تقضي بكل شيء ولا يجوز
الاسراف في الماء المخصص لاربع وعشرين ساعة
بلغ معسكر الجيش الخبرة الثانية في ١٥ شباط سنة ٣٣٠
فاصبح الموقف كما يلي :

الفيلق الثامن في جوار القناة ومقدمة الفرقة العاشرة في
الخبرة الاولى ومقدمة تجريدة الحجاز تكون في قلعة النخل بعد
ثلاثة ايام .

(١) الوشل : الماء القليل

وقد نشب خلاف جديد بين الجيش والفيلق في الحـبـرة
الثانية فكان الجيش يرى تأخير الهجوم حتى تصل تجريدة
الحجاز ووصى بذلك الفيلق فاستشاط غضبا واجاب ان هجوم
القناة لا يكون حسب الملاحظات العسكرية وحدها بل لا بد
من ملاحظة حاجة الجيش الى الماء ولا يوجد امامنا منزل ماء
يعول عليه فنزل الجيش على حكم الفيلق مرة ثانية

وحقا انه ليس في مقدورنا تأجيل الهجوم الى اليوم الذي
نريده لان العسكر مفتقر الى الماء والزاد ولا تكفي قطرات
الاباعر لنقل ما نحتاج اليه .

اما العودة الى الورا فحديث خارج عن الموضوع مطلقا
ولقد كانت حال التجريدة العثمانية هنا اسوأ من حال الجيش
العربي الذي عبر به قائده مضيق جبل الطارق واحرق السفن
لان بئر السبع الذي هو اقرب المنازل الينا بعد ثلاثمائة كيلومتر
وصحراء سيناء اشد خطراً من مضيق جبل الطارق والتدبير
الوحيد هو الارتقاء على القناة ولم يبق الا ان تشعل نار الحماسة
في قلب كل فرد من افراد الجيش ويلقى في روعه اقصى ما في
العزائم والعقائد من يقين وهمة كيلا يألو جهدا من مجهوداته
المادية والمعنوية ولذلك اذاع قائد الجيش بيانا علما وصف فيه

الموقف وصفا صحيحا وذكرا ان الارزاق والمياه والنجاة والظفر في
العدوة^(١) الثانية من القناة وان اسر الشهداء من الضباط تعطى
مرتبات وديات ويشرى لاولاد الشهداء من الجند مزارع وقرى
متى تم فتح مصر وامر كل رئيس ان يقتل مروؤسه متى احجم وثناقل
قصدنا قصد القناة بعد ان روحنا عن انفسنا ومكشنا يوما
في الحبرة الثانية وكان هنالك هضبة تسمى كتيبة الخيل تحتشد
فيها التجربة وتعد عدتها وهي وجهتنا المقصودة في مسير ذلك
اليوم ، ولما توارت الشمس في حجابها وفرغنا من العشاء مضينا في
سبيل قصدنا متوقعين في كل لحظة ان نشاهد بعض طلائع العدو
وكان يحمل رأفت بك مجنبا بقي لديه من ايام مطاردة
العصابات البلغارية ومسدسا ويحمل رئيس اركان الحرب مسدسا
وحقيبة روعاء ماء ومصباحا وكنت اكثرهم اعباء

قطعنا المرحلة الاخيرة والشوق بالغ منا مبلغه وافيائونا
تستطيل على الرمال قبيل غروب الشمس استطالة لاحد لها . ولما
جن الليل اخذنا نسير متتافلين في ارض كثيرة الرمال وقد اعيانا
التعب في مواصلة الجهد مدة يومين وسرنا مهومين^(٢) وامامنا ضوء

(١) العدوة بضم العين وكسرهما : المكان المرتفع او جانب الواد

(٢) هوم الرجل تهويماً : اذا هز رأسه من التعاس

نتنوره من بعيد حاسبين انه يضيء في كتيبة الخيل وكونا انتهات
عليه متأملين بلوغ القصد . ولما دونا منه عرفنا انه لم يكن ضوء مصباح
ولكنه ضوء نار سامية ، فرأينا ان نخرج على هذه النار التي املناها
وترجل قائم الجيش وترجلنا معه فوجدنا فرقا من جنود الاستحكام
يجرسون بعض الجسور الثقيلة التي تعوم ويلزمهم ان يبلغوها مكانها
في الميعاد

وكانت الانوار الكشافة على ساحل القناة تبلغ هذا المكان
وتعكس الوانها على ذرعة الرمال ، وقد الفنا مناظر الصحراء
المتشابهة وسئمنها فتبدت المناظر ودخلنا في ساحة الانوار
الكشافة التي كانت لشدة قوتها تقطع مسافة عشرين كيلومتراً
وما اشق عمل ذلك الفريق من جنود الاستحكام فانهم كانوا
يعينون ستة ثيران على سحب جسور لم تطق سحبه وما اشبه هذه
المنظرة وابلغها : منظرة تعاون البشر والثيران تعاوناً قالياً . وكان
يوقد النار جنود لم يصر فهم مجيء القائد عمداً كانوا فيه من
عناية واهتمام . وفوق النار قدر فيه رأس بعير ذبيح يطبخ قد
افرغوا عليه مائي اوعيتهم من المياه فوقفوا انتظر نضوجه ،
واخذت الثيران قليلاً من الراحة في أثناء هذا الانتظار . ووقف
معسكر الجيش بفضل البعير يستريح زمناً لم يكن في خطته ، غير

ان البعير لم ينضج وكان على الجندان يباغوا الجسر مكانه قبل مطلع
 الفجر فامرهم قائدهم بسجبه فاخذوا يسحبونه مع الثيران غير مبالين
 بالانوار الكشافه وذهبت مساعيهم ادراج الرياح ، فلارأس
 البعير نضج ولا ما وهم بقي وخابت آمالهم . وهل ينقص غزوة
 مصر خيبة آمل ؟

ان نقل الجسور امر شاق وقد رأينا مشقته باعيننا وعرفناها
 بانفسنا فقطعت الجسور صحراء التيه ووصلت الى القنطرة ولم يذق
 ساحبوها من الضباط والجنود حساء مدة اسابيع

اثر في نفس رئيس اركان الحرب ماراه فقال يتاجي ربه :
 « اللهم ارحم هذه الامة المسكينه ومتعبها باستقلالها جزاءً وفاقا لما
 قاسته من الالم وعائته من مشقات ، واذا لم تبلغها آمالها فاني
 اشك في عدلك » . سمعت هذه الكلمات منه ورأيت الدمع
 يتساقط على وجنتيه فامتلات جوانحي شكرا له لم اشعر به من قبل
 ولا ريب ان هذه الكلمات خرجت من اعماق جوارحه ،

غير انها من الشعر والشعر ابعد مايكون عن تعبئة الجيش وان كان
 يتصل بالجندي في بعض شؤونه ، اما تعبئة الجيش فانها تستند
 على قواعد رياضية ولا يستطيع شعر او مناجاة او اي شيء ان
 يؤثر على حكم القوائين الطبيعية بعد ان بلغت هذه الحلة القنطرة

التي حمتها انكلترة باسطولها وانشأت فيها سدا من حديد ، والظفر
في الحرب نتيجة صراع القوى المادية فيدركه من كان اشد بأسا
واكثر عدة واعظم قوة مادية . واما القوة المعنوية فانها تعين القوة
المادية فتزيد في العزيمة والثبات والصبر ، وتسمو بهذه الخصال الى
اسمى درجاتها التي تعين على ادراك الظفر وليس للقوى المعنوية
تأثير غير ذلك . ثم ان الذخيرة المحدودة والمدافع ذات الخمسة
عشر سنتيما لاتعني شيئا في مباغثة حماة القنناة الا بقاء ، ولو امكننا
عبور القنناة لجاء الاسطول وخرب الجسور وقطع مواصلات
الحملة غير انه لم يكن مجال لأعمال الفكرة في هذه المواضع ولم
يق لنا غير المخاطرة وبذل العزائم والهمم باقصى ما يستطاع
حتى تتم ما بدأنا به ونخضع احكام المقادير ونجعل الاستجيل ممكنا!
برحنا موضع الاستراحة واخذت انوار الكشافة التي لا
نعرف مقرها نتطير فوق رؤوسنا فيكأن الجن والشياطين اقاموا
في هذه الليلة زينة خارقة للعادة

ثم وافينا كتيبة الخيل فرأينا انفسنا امام منظره سحرية
ورأينا القنناة امامنا ورأينا الكشافة المصفوفة في جانب بعضها
بحيث لا تبعد الواحدة عن الاخرى مترين او ثلاثة فتقلب
الدجى نهارا وتظهر قنناة السويس كقرص من لجين وتتألق السفن

في مجراها بما يسطع عليها من الانوار وتسير في القناة سيرا
 وتبدأ^(١)

ولاحت لنا مدينة الاسماعيلية ومواقع طوسوم وسرايوم
 هائلة ساكنة ورأينا ظلال السفن في الماء وآثارها في السماء . ولا
 استطع ان اصف تأثير هذه المنظره التي فاجأتنا بقتة وكنا نظن
 ان صحراء سيناء لاحد لها ولا نهاية بعد ان قضينا فيها اياما طوالا
 بين كيشان الرمل والاعاصير والحيوانات المتجمجرة وقد ظهرت
 لعيوننا الآن مناظر مدنية خلافة ، فكأن محاسن الحياة وبدائنها
 خرجت لنا من جوف الرمال فجأة بكل ما فيها من رقة وروعة
 ما كان اجمل مرور السفن في القناة وكأننا قدمنا لنفسد هذه
 المناظر الساكنة الوادعة وكنت اشعر تأنيبا في نفسي ووخزا في
 ضميري . وقد ساورتنا الحيرة لان جميع الاهوال التي كابدها
 والاضطراب التي اقتحمتها في الصحراء لم تعق السير والسفر في القناة
 وكان ذلك استهزاء بنا . ولعل ركب السفن وقفوا على ظهورها
 بعد ان اكلوا هنيئا وشربوا مريئا وراحوا يتمتعون بمناظر المدينة
 البديعة التي وهبتها اياها الانوار الكشافة ويستبقون في خواطرهم
 ذكرها . فلنا بعض الحق اذن في مهاجمة القناة اتقماما من

(١) اتاد في مشبه وتواد «من التودة» : وهي الثاني والتأمل

المستشرقين !

انشيء في كتيبة الخيل موقف رصد ووقف فيه احد
ضباط اركان الحرب ينبتنا بما يراه فيذكر ما يظهر له من السفن
التي تمر ووجهة سيرها والانوار الكشافة والقطرات المدرعة
والطرادات واشباه ذلك .

وكان هذا الضابط يروي مشاهداته ساكنا هادئا كمن يروي
حادثة مألوفة لاشأن لها وكانه في تمارين حربية في جوار الآستانة
او كأنه يلعب لعبا حريا في دائرة اركان الحرب العامة وكان
هذا الضابط في طوره اهدأ من القناة واكثر سكينه واربط جأشا
واذا نظرنا الى الاشياء من حيث طبائعها رأينا في هذا الرصد
فوق هذا المكان ما يبعث في النفوس من الهياج ما لا يستطيع وصفه
نمنا في رمال كتيبة الخيل اللينة في حفائر صغيرة احتفرتها
الى ان ايقظتنا الطيارات في فلق الصبح .



٩ - الغارة

خطة الهجوم - الاوامر الى الجيش - تقسيم
 المهاجمين - واجبات الذين يعبرون - حماة
 القناة - محاصرة فون كريس - احتياط
 الجيش - عاصفة هائلة - الكتيبة ذو العلامتين
 الضلال عن مكان الرصد - العبور - اشتراك
 القطرات المدرعة في القتال - الشهيد الرهيب
 الأعياء في الجنود - حقيقة الموقف .

اجتمع قائد الجيش وقائد الفيلق وسائر القادة وضباط اركان
 الحرب والضباط الفوارس في مساء ١٩ شباط بعد ان رجعت
 آخر طائرة للعدو من اجراء كشفها وذلك لتلقي خطة الفيلق
 الثامن من فون كريس بك - حتى يعرف كل امرى تفاصيل
 ما يتعمت عليه القيام به ولا يبقى مجال لشبهة او تردد . وكانت خطة
 الهجوم تستند على اساس المباغتة ، والمكان الذي وقع عليه الاختيار
 بين طوسوم وسراييوم اي بين الاسماعيلية وبحيرة التمساح وبين
 البحيرة المألحة القائمة في جنوبها وهو بعد قليلا عن مكان
 اجتماع الجيش وتقوم خمس كتائب بحركة العبور وتظاهر سائر
 قوى الجيش وسرايا الاجنحة بمهاجمة الانحاء التي تقابلها من

القناة ، والقوة التي يباط بها العمل تبرح مكان اجتماعها في مساء اليوم المقبل بعد غروب الشمس وتسير موازية للقناة ثم تجتمع في جهة العبور لاخذ الاهبة وبعد ذلك تنقلب الى اليمين وتوجه الى القناة . واليك بيان الاوامر التي اعطيت لها :

١ = انسحب جيش العدو بأمره الى عدوة القناة اليمنى
٢ = تغير على القناة ليلة ٢٠ - ٢١ شباط سنة ١٣٣٠ محاولة الاستيلاء عليها

٣ = تغير الجناح الايمن على القنطرة واللواء ٦٨ على الاسماعيلية والجناح الايسر على السويس

٤ = نكف المدفعية الثقيلة في جنح الليل مستعدة مع كتيبة المشاة في (بير فواره) وتمد المدفعية بكتيبة من اللواء الثامن والعشرين وعليها ان ترمي سفائن العدو وتخربها في بحيرة التمساح واذا تيسر لها تفرق سفينة النقل عند مدخل القناة وبعد ان تتم هذا العمل تقصد الجنوب وتطلق نارها على السفن الراسية في البحيرة

٥ = نتهب الوية المشاة في معسكراتها لتسير في الساعة السادسة بعد ظهر يوم العشرين من شباط ويقود رئيس اركان الحرب الزحف الاول .

وتساق الالوية في بادئ الامر الى حيث يوجد صنع
الجسور وتأخذ كل فئة مهاجمة من السرايا ثلاثة جسور ومعها
عند الاستحكام ثم تساق الى موضع التأهب ويأخذ فون كريس
قادة السرايا بعد ظهر ٢٠ شباط سنة ٣٣٠ ليدلهم على مواطن
الهجوم ومواضع رفع الجسور فيقفون امام القناة التي هي غرض
المهاجمين وتقف وراءهم سرايا الخط الثاني .

ثم يكون المهاجمون ثمانية اقسام وتترك الحيوانات والعجلات
وخيول الرشاشات في مكان التأهب ويكون الجند المهاجم او
الجند المرابط في الخط الثاني على نظام السرية وتحمل كل زمرة
جسراً وتكون المسافات التي تفصل بينها ٤٠ او ٥٠ خطوة
ويسبق كل زمرة نفر من الكشافة يقودهم ضابط صغير ويؤلفون
من ستة جنود ، ويقود كشافة القلب ضابط وتمشي الكشافة
منفصلة عن بعضها بمسافة تتراوح بين ١٠ و ٢٠ خطوة وتسير
وراءها السرايا بمسافة ١٠٠ خطوة وتبعتها سرايا الخط الثاني
بمسافة ٣٠٠ متر ويستمرّون في سيرهم بلا انقطاع الى القناة
حتى يقطعوا ثلاثة او اربعة كيلو مترات بتبدي من مكان التأهب
ويركبون الجسور على القناة وتحمل افواج الرشاشات سد
شرقي القناة وتقابل العدو اذا اطلق عليها النار .

وفي هذه الاوامر تفاصيل ما على الجنود الذين يعبرون من
الواجبات في العدو الثانية فالسابقون اليها يحملون الماء وتمضي
السريتان الاوليان في جهة الغرب مسافة ٥٠٠ أو ١٠٠٠ متر
وبعد ان تمتد سائر العساكر تحتل الكتيبة الاولى راية طوسوم
بقوة يسيرة ويتخذ ما بقي احتياطاً في جنوبي الراية ويتقدم
لواء متوجها الى السكة الحديدية من الغرب ويقف في طرفي
السكة امام الاسماعيلية ويذهب لواء آخر في جهة الغرب نحو
السكة ثم ينطف الى الجنوب فتستقر هنالك كتيبة منه لاجل
حماية الجناح الايسر وتكون الكتيبة الثانية احتياطاً للقلب
فاذا صادف مقاومة هجم بالحراب وبنشبي الاستحكامات في
المواقع التي يحتلها

ويفهم من هذا الايضاح ان الغاية التي يرمي اليها الفيلق
احتلال ساحتين كلاهما تسامت^(١) القناة عموديا الواحدة من
الشمال والثانية من الجنوب وكلاهما بين السكة الحديدية والقناة
وكان على كل واحد ان يضع على ساعده شارة بيضاء
لاجل التعارف واتخذ كلمة «المواء الشريف» شعاراً ومنع الكلام
والدخان وامر ان تربط آلات التحكيم والحراب وسائر الآلات

(١) تسامته : قابله

ربطاً محكما حتى لا ينتقل ولا يسمع لها صوت وامران لا
تحشى البندقيات محاذرة وقوع خطأ يفشي سر المباحثة وان
تعاقب الحراب في رؤوس البندقيات

واذا لم ننظر الى التمكن من انفاذ هذا الامر او عدمه
فاننا نجد قد احتوى من البراعة في حسن التأليف ومن سمو
الهمة وبعده العزيمة ما يجير الالباب .

فالبلاغ الذي اصدره المرحوم سليمان باشا بعد ان صلى
ركعتين قبل الاشتباك بمبارك « شبة » التي دامت سبعة ايام
ليل نهار وبلاغ واقعة فرق كليسا التي فصلت في حرب البلقان
لم يكن فيها جمال هذا البلاغ وروعته ولا اتقان تفاصيله وفروعه .
وقد اثر في نفسي منه اكثر من كل شيء المادة القائلة
بتخريب السفن التي في بحيرة التماسح وتطلق النار بعد الانتهاء
منها على الطرادات التي في البحيرة المالحة وكان الالمان يعلموننا
ويعنوننا في الاستانة بقولهم ان المدرعات لا تستطيع اطلاق
النار من القناة لأن اهتزازاتها تقوض الاسداد فانظر الى ما في
التلقين وتكرار القول من عظم التأثير فلقد قنعنا بذلك والفتة
نفوسنا حتى كنا نظن ان بقاء هذه السفن هو على سبيل خطأ
وغفلة وانها لا تعتم ان تقرطسها فنبالنا

ولم يكن فيه تفصيل عن قوى العدو وان كان لدينا علم بها من قبل واليك ما اتصل بنا :

الشيء خطان للدفاع عن القناة الاول في شرقها والثاني في غربها والمعمل عليه خط الدفاع الغربي واما الشرقي فهو للحراسة والمراقبة غير ان القنطرة كانت منيعة ويمتد موضع الدفاع الاساسي ثلاثين كيلومترا وبصاف شمالي القناة ووسطها .

في خطوط الدفاع مدافع ثقيلة وخفيفة والغام ورشاشات تحمي القناة من اولها الى آخرها وقطارات مدرعة رمادية اللون وفي كل واحد مدفعا سفينة ومدفعان رشاشان و ١٠٠ مقاتل وكان حماة القناة يناهزون ١٥ الفا بين هندي وبريطاني ما عدا قوى المصريين والعمال وان لم يكن لدينا تفاصيل عنهم وفضلا عن ذلك فانه من الهين ان تجد القناة يوما فيوما بالجيوش التي تمر بها قادمة من المستعمرات في آسيا واوستراليا . وقد اغفل ذكر ما تقدم حتى لا يؤثر في قوة المهاجمين المعنوية التي فون كريس محاضرتة والشمس تغرب في آفاق مصر والجو ساكن والهواء طلق والموقف رائع ونحن على اهبة الواقعة التاريخية التي تقوم بها هذه الطائفة من الناس المحشدة في

بقعة من صحراء سيناء ولم يكن لفون كريس من الحزم والعزم في يوم من الايام مثل ما كان له وهو ياتي هذه المحاضرة لانه اوشك ان يميتني ثمار مساعيه وما اعظم مساعيه في الايام الاخيرة ، فقد ذهب بنفسه مرارا الى القناة وكان يجتهد في ظل خيمتين ويشرب الشاي وفوقه طيارة للمدودانية .

وكان كل انسان امامه في اثناء المحاضرة غير كفوء له ولم يزل وهو مدبر هذه الفاجعة وصاحب امرها متمسكا بالتواضع ولين الجانب مع معرفته بما له من المكانة وازدافته اليها الثقة بنفسه والتثبت من امره وكيفما كان الرأي فان منظر هذا الرجل يستوجب غبطته وهو على كل حال فوق الطبقة الوسطى من الرجال .

اما الفرقة العاشرة فقد وافت مقدمتها بئر السبع في ٦ شباط وهي موءلفة من اللواء الثامن والعشرين ومن مدفعية صحراء سرية وقامت من بئر السبع في ٨ شباط فوصلت كتيبة الخيل في التاسع عشر من الشهر المذكور ووصل اللواء التاسع والعشرون الى كتيبة الخيل في ٢٠ = ٢١ و يتوجه الى القناة في الليلة نفسها وتبقى كتيبة المدفعية الاولى في حفير العوجا بسبب المياه والمون وقرر ان تؤلف الفرقة العاشرة احتياط الجيش واليك ما ذكر

في بلاغها :

١ = يعبر الفيلق الثامن باجمعه القناة و يستقر في نجد طوسوم
٢ = يعبر معسكر الفرقة العاشرة بعد لوائها الاول و يعرب
جنودها متجهين الى السكة و يكون الاحتياطي العام وراء
الفيلق الثامن

٣ = يعبر معسكر الجيش بعد لواء الفرقة الثاني اى الـ ٢٩
ففي يوم العشرين من شباط تلقي الحقيقة المرة قناعها وتضع
الاحلام اللذيذة حجابها ، وفي هذا اليوم تعد التجربة اقصى عدتها
للعبور و تنتقل باسرها فتقابل المكان الذي اعد لذلك و يذهب
معسكر الجيش بعد هزيع من الليل فيقف في مكان بين القناة و بين
كتيبة الخيل على نجد يبعد عن القناة مسافة اربعة او خمسة
كيلو مترات وقد نفضنا^(١) هذا المكان قبل الظهر و عرفنا طرائقه
وسبله

تناولنا طعام الغداء و مكثنا في المعسكر نستريح قليلا و تمت
اعمال التأهب و لم يبق علينا الا الانفاذ و بينهما فصل راحة ممتدة
وانتهى كل ما تستطيع القوة البشرية ان تعمله في تلك الظروف
و لم يبق الا نحر نصف يوم لمباشرة التطبيق و الاجراء

(١) نفض المكان : نظر جميع ما فيه حتى يعرفه

و بينما نحن في ذلك ثارت عاصفة بافصى شدتها فلم نكن نستطيع ان نشاهد ما حولنا وظنناها بادي الرأي بشارة رحمة لانها كانت تعصف من الشرق الى الغرب ورجونا ان تخفي ماأأخذ من اهبه وتحول دون كشف طيارات العدو غير ان هذا التفاؤل لم يدم طويلا بل انقلب الى يأس لان العاصفة بلغت مبلغا لا يستطيع معه احد ان يبرح مكانه او يأتي باقل حركة او ينطلق بكلمة وكان على القادة عمل كبير في هذا الزمن ولكل دقيقة وساعة حساب في جدول اركان الحرب

ولم يكن من المتوقع هبوب هذه العاصفة الهائلة قبل الغارة بساعات وهي تبدل منظر الارض الرملية وتغير تكوينها وتفسد اعمال الكشف الاخيرة .

ما كانت هذه العاصفة بالبشرى التي يسكن اليها بل كانت ذات ضرر بالغ واذا غضبنا فماذا ينفع الغضب ؟ وهل تغير القوانين الطبيعية سيرها وتنقض احكامها لاجل تجريدة عثمانية قدمت القنائة ؟ وهل من شأن الطبيعة اثاره عاصفة تؤثر في مصير تجريدة عثمانية ؟ فما اضعف الانسان واصغر مساعيه امام قوى الطبيعة وشدائدها ؟ وقد عرض في خاطري حينئذ قول بجنز (ان قوى الطبيعة وحشية قاسية) .

بقيت في جببي برثقاله من بئر السبع حاولت اكلها مستقبلا
بها في هذه الزوبعة فملكت بالرمال وكنت آسف على قطراتها
المساقطة .

سكنت العاصفة بفتة كما نارت بفتة فقمنا ننفض عنا رمالها
التي نكرت معارفنا ونفذت الى كل شئ ، ثم توارت الشمس في
حجابها واستقبلنا ليلة قلما يصادف مثيلها بهاء ورونقا ولطافة ولا
كسائها صفاء ونجومها متشابكة كأنما هذه النجوم اشرفت على
الارض لتشهد حلول الرزية في هذا المكان

وما اجمل ليالى البلاد الحارة وارقمها ولقد ظننت باريس
مضطربة في اول ليلة حللت بها بعد بلاد عسير . رأيت السماء
محمرة باضواء (مدينة النور) لا يلوح لنا كوكب فيها وهي مكفهرة
مغمية فحدث حينئذ فتحي بك الملحق العسكري بلعمان السماء في
عسير فقال انه يختار ارض باريس على سماء عسير . ذكرت هذه
الكلمة على شفير القناة فضحك لها ، وقد يهتز المرء طربا اذا ذكر
حادثة ماضية وان كان في اخرج المواقف .

تحول مقر الجيش بعد طعام العشاء من كتيبة الخيل الى
مكان الرصد وسار على اثره اللواء الثامن والعشرون من الفرقة
العاشره وقد انتخب هذا المكان في النهار وبينه وبين القناة خمسة

كيلو مترات وهو قليل الارتفاع اطلق عليه اسم (الكثيب ذو
العلامتين) غير اننا لم نستطع الاهتداء اليه في خنج الدجى على اننا
اتيناه مرتين في النهار ولاح لنا ضوء منارة هنالك ولم نعرف
ان كانت فوق الكثيب اولم تكن كما اننا لم نعرف الذي وضعها .
ثم اهتدينا الى الكثيب الذي لا بعد مسافة نصف ساعة
بعد ان جئنا مسافة ساعة وقد ضل المواء التاسع والعشرون في
بجته عنه كما ضل قائد الفرقة الزعيم « فون ترومر »

ترجلنا وراء الكثيب وصعدنا اليه وكان بيننا وبين قائد
الفيلق مسافة مئة متر وكان كريس يرشد الجند المهاجم وقد
انقطع اتصال قيادة الفيلق بموضع التعبئة بسبب انقطاع اسلاك
الترلفون وكنا نلجأ الى معاولنا ونسكن فيها كلما انبثقت الأنوار
الكشافة من كل صوب وحذب وخطفت الابصار بضوئها .
فهل كانوا يعملون بما عولنا عليه في هذه الليلة ام هم يعملون
ذلك في كل حين ؟

قدّرنا ان يبدأ بالعبور في الساعة العاشرة وان يأتي دور
معسكر الجيش في الساعة الثانية ولكن مضت الساعة العاشرة
ولم تتلق نبأ عن الهجوم ولم نقف له على اثر فهل كان هذا
الصمت دليلاً على نجاح المباغثة ؟ ولم يكن لدينا اسلاك تلفون

تسرع الينا بحمل الانباء . ومهما كانت هذه الظنون معقولة فاني
لم اكن اظن ان حركة المرور قائمة ولم يقع في خلدي انني اعبز القناة
في صباح الغد الرائق .

ضل اركان المعسكر في طريقهم الى محل الرصد ولم يتيسر
وصله بحمل التعبئة غير انه مما يسبق الى الظن ان تتأخر مسرايا
الهجوم عن القيام بعملها في ذلك الظلام الدامس كما تأخر وصول
الزوارق ومدافع الصحراء بسبب الزوبعة التي بدلت الارض
غير الارض

مضت الساعة الحادية عشرة فالحادية عشرة وثلاثون دقيقة
واوفت على الثانية عشرة والسكون مخيم في تلك الارزاء والانوار
الكشافة تنتشر في الفضاء وتجتاز بنا متتابعة وقد مالت بعض
الكواكب الى الغروب واخذت تسطح في الشرق كواكب
اخرى ونجذت الاصوات وحال التشوف واختلاج القلوب
دون كل شيء

ففي منتصف الليل وفي وسط هذا السكون اخذت ترن
في آذاننا اصوات غريبة مجهولة كرجع الصدى وكأنها خارجة
من الحجارة والجمادات والكواكب السائرة او من نلامس الانوار
الكشافة بالرمل ! لم تبق الا دقائق حتى تنقضي ليلة الهجوم

وينبج الصباح .

اخذ الكرى بمعاقد الاجفان بعد منتصف الليل وطرحننا
الاعياء على الثرى ولم يبق فينا من لم يرقد مهما كان شديد العزيمة
ففي ليلة هذه المباغته على مسافة اميال من قناة السويس
كان نفر من الناس رقودا على تلك الرمال تلاعبهم الانوار
الكشافة فتقرضهم ذات اليمين وذات الشمال لافرق بين
الكبير والصغير ولا تفاوت في المراتب والمنازل كأنعام بعضها الى
جنب بعض غير اني بقيت هاجما انتفض من البرد واطالع ابراج
السماء التي تشرق وتغرب وانظر الى الساعة بين حين وحين
كان بين عقاربها وبين نجوم السماء اتفاقا وعهداً .

فلا الآمال التي عقدت على غزوة مصر في الآستانة والشام
ولا المقالات الافتتاحية التي كتبها طين ولا شيء سوى ذلك
اثر في السماء وسيرة نجومها ولا منح هذه التجربة المنكودة دقيقة
من الزمان ولم ادرك كما ادركت في تلك الليلة مبلغ تأثير الزمان
في مقادير البشر وشؤونهم وتاريخهم فملككتني عيني وذهبت
صريع الكرى

لا اعلم مدة منامي وقد استيقظنا جميعا على اصوات المدافع
الرشاشة كأنها نفيق النهوض وقال قائد الجيش : هاكم اسمعوا

اي انه صار ما انتم تنتظرون . وذهبت الى قائد الفيلق ولم
يكن قد جاءنا خبر من الاخبار ولم يسمع لنا رنا صوت ، اما ذلك
الصوت المتقطع الرفيع اليابس فهو صوت رشاشات العدو من
عدوة القناة الثانية . فماذا كان يجري في القناة حينئذ ؟ يالها من
دقائق اضطراب ! حار قائد الفيلق واستشاط غضباً لان
الرشاشات تدافع عن القناة فتذكرت كيف ظهر خطأ كثير
من الآراء والمعتقدات التي كان يؤخذ بها قبل الحرب ولكن لم
يظهر ذلك الا بعد نزول النازلة . لقد استخف بمقدرة الانكليز
على الحرب ايما استخفاف ولم يكن يصدق انهم يؤلفون جيشا
عمر ما وقد نقل رئيس اركان الحرب عن الاميرال شوسون
قوله : « صدقوني ان الانكليز اضمحلوا » فالجهاد المقدس وخطر
اتحاد الاسلام وظهور الثورات في مستعمرات فرنسا وبريطانيا
و بلوغ النتيجة الحاسمة في الحرب عما قريب وشأن القواصات
وما اشبه ذلك من الآراء والمعتقدات الراسخة التي علمنا ، بعد ان
فات زمن العلم ، ما كان اقر بها من الخطأ وما اشد مهالك احلامها .
ولم يرض قائد الفيلق ان يبقى بعد نشوب القتال في
الكثيب العاري من اسلاك التلفون وذهب مع حاشيته في
طريق مكان التعبئة فغابوا في الظلام

اقبل بعد ساعة رسول وهو فتي من ملحق اركان الحرب
فاعتذر لانه اسرع بالعودة بسبب جرح اصابه وقال ان الزحف
الاول عبر الى العدو الثانية وقد تصاعدت اصوات التهاويل
منها ثم ورد علينا ان ثروت بك قائد المغيرين سقط جريحا
وحمل للضميد جراحه . فتيين من ذلك ان القتال استمر^(١) بين
الفرقيين واشتد امره وكان ضباب خفيف يستتر كل شيء في
ساحل القناة كأنه يريد ان يحجب العميون عن مشاهدة الرزية .
ويا لله ما جرى في ذلك الليل الاليل !

كان فون كريس يقف بين آونة وآونة ويعمل على تحديد
الوجهة ثم يستأنف عزيمته وتبعه السرية . فمقادير التجربة كلها
في قبضة رجل واحد

ولم يكن لكريس بك دليل ومعين في هذا المسير المحفوف
بالاسرار الغامضة غير رايه وعزيمته وذكائه . افلا يصح لنا ان
نشبهه بالرجل الذي تولى قيادة شعب قبل خمسة آلاف سنة في
هذه الارحاء ؟

ضلت كتيبة الاستحكام والزوارق وزمر المدفعية الثقيلة وكان
من البلاء ان لا تكون الاوضاع كاملة في حينها ولم تبلغ كتيبة

(١) استمر القتال : اشتد

الاستحكام والزوارق محل التعبئة قبل الثانية عشرة ولم يأخذ الجند بمفارقة هذا المحل الا في الساعة الواحدة ونصف ولم يطق المشاة حمل الزوارق فتأخروا وبدأ التردد والاضطرابات والتواني واخذت الكلاب تعوي منذ اصبح بين الجند وبين القناة ٧٠٠ متر فكانوا حماة القناة الايقاظ وحراسها الامناء ٠ فتراكض الجند من فورهم الى سد القناة الشرقي ما عدا المكلفين بحمل الزوارق وسبقت السرية الثالثة من الكتيبة الاولى من اللواء الرابع والسبعين فحاولت العبور غير ان رصاص الرشاشات اغرق الزورق الاول وقد تمكن ضابط وجندي من العبور الى الساحل وسلم الزورق الثاني وغرق الثالث وعبر زورق آخر من الكتيبة الثانية في اللواء نفسه وتبعه ثان ولكن الزوارق التي تمر لاتطيع العودة بسبب النار الحامية ولم يكن يتيسر انزال الزوارق في جميع الساحل لاختلاف تكوينه بل كان يقتصر على مكان محدود هاديء تنزل فيه الزوارق فتفتك نار الرشاشات المتقاطعة فتسكاً ذريعا بالذين يركبونها من جنود الاستحكام او الذين يتقدمون الى الامام من المشاة ، وتغرق الزوارق وادوات الاستحكام وضعت الرشاشات في العدو الثانية من القناة وضعا متناسقاً يحمل نارا متحدة في نقطة واحدة يجاهد الذين اقلتهم الزوارق

والذين غرقوا في ايم جهاد الابطال وابلوا بلاء حسنا وكان الضباط يلقون بانفسهم في القناة لیسحبوا الزوارق المثقوبة ويدنوها من الساحل ، ويعتمدون على سواعدهم في عبور القناة ولم يكن ينفع هذا التفاني في كل حين وغرقت في ظلام الليل الزوارق المكتظة بالشهداء والجرحى واي شيء يعرف بالبداهة كما يعرف ان الزوارق الخشبية تثقب بالرصاص وتغرق ولكن المرء لا يصدق كثيراً من البدييات حتى يراها بعينه ويجربها بنفسه .

ذهبت الهمم والعزائم الخارقة ادراج الرياح وضاع كل ما بذله المهاجمون من جهود وفدى ولم يعبر الا سريتان تصاعدت اصواتهم بالتهليل والتكبير ثم سكنت ، ولقد اشك الصباح ان يسفر ، وانجد العدو قواه في مواضع العبور ، واقبل يمتد قنابله على المدفعية الخبأة ، واشتركت في القتال القطرات المدرعة .
واليك وصف المشهد لما حسرت الشمس قناعها وارسلت انوارها على الكتيب الذي فيه المعسكر :

كان في شرقي القناة خط مقاتلة مرصوص تصلاه نار مشاة ومدفعية حامية ففرق قضي نجبه وفرق ينتظر وفرق هم بالرجوع الى الورا

وكانت مدافعنا الصخر اوية تقابل تلك النار . واما الطرادات

فقد لازمت الصمت كأنها لا تريد الدخول في المعركة ومدفيعتنا
الثقيلة واقفة امامها كذلك

وكانت سفن الاسفار تتراعى متزاحمة وتمر في القناة
مسرعة ومخالفة كل قاعدة من قواعد السير فيها التحمي في نغر
الاسماعيلية .

ونحن في هذه الحال انبأنا قائد الفيلق ان جنده يتقاعد
عن القتال فينبغي شد ازره بالفرقة العاشرة فامر اللواء الثامن
والعشرون بالتقدم ولم يمض غير دقيقتين حتى صار في حومة
الوغي على غاية ما يكون من الدربة والنظام وحسن الحركة
والاثناء والاعتماد طبقا لما تقتضيه الارض والنيران وقد مضوا
في سبيل القناة لايلون على شي باقصى جراءة وعزيمة فكانت
منظره تستوقف الابصار وتخلب الالباب ، وما كاد يقف هذا
اللواء في مواقفه حتى ثبت الفيلق الثامن ونسبت بين الفريقين
نار حرب شعواء الى ان نشر الليل اجنحته السوداء

ولكن لماذا لم تشترك مدفيعتنا في القتال واين (هاى باي) ؟
وكنت اكرر هذا السؤال مرغما . وهاي باي ضابط الماني شاب
يقود مدفعية الهاون فظهر عمود من دخان متصاعد في وجهة
الاسماعيلية بعد انفجار عميق محتق عرفنا منه دخول المدفعية في

القتال فكانت توجه ناراها بداية ذي بدء الى سفينة مفرغة في
 صفة معاون طراد في بحيرة التماسح فاضطرت بعد حرب ساعة
 ان تخرج من المعركة وهي تلهب النهابا ولكن لم يستمر فوز المدفعية
 فقد استأنف القتال طراد مدرع في البحيرة المذكورة وناب مناب
 صاحبه واستمر في القتال حتى اخمد المدفعية . ثم اخذ بوجه النار
 مع طراد آخر في البحيرة المملحة الى اغراض اخرى . فزال من
 اذهانتنا الى الابد خرافة القائلين ان السفائن الجسيمة لا تستطيع
 اطلاق النار في القناة . وكانت الطيارات تقوم بالكشف بدون
 انقطاع وبجهد لا يعرف الكلال فتتظم نيران الطرادات ومراميهها
 وقد بلغ اتحاد مساعيها مع نار المدفعية حد الكمال فيصيب
 الطرادتان الاغراض التي تشير اليها الطيارات في آن واحد وكان
 الغرض الاقصى اصابة مخبئي مدفيعاتنا وكثيرا ما استهدف المعسكر
 للنار . ولم ينتخب مكان الرصد لقتال النهار بل كان ينتظر ان لا
 تبجلي الغياهب قبل عبور القناة فحق نيران المدافع وقنابل الطيارات
 ان تلاعب المعسكر وتكره رجاله على طواف ميدان الحرب رجالة
 وركبانا الى يكنهم^(١) الليل .

وجاء قبل الظهر تقرير من قائد الفيلق يقول ان احراز

(١) كنهه واكنه الليل : متره

التفوق بغتة أصبح متعذرا فملينا ان نحرزها عنوة وان نعمل على ادراك
التفوق بالنار ونقاتل الى المساء ونعاود حركة العبور في الليل .
فاستصوب هذا الرأي وابلغ قائد الفيلق انه اضيفت اليه كتيبة
مدفعية الصغرى الاحتياطية في الفرقة العاشرة ولكن تبين بعد
الزوال ان التفوق بالار امر مشكوك فيه ، وانه يشك في بقاء
ما فيه الكفاية من الزوارق

فاوفدي قائد الجيش لسؤال قائد الفيلق عن حقيقة الموقف
من حيث المسائل المادية وحدها بدون اصغاء الى عاطفة او هوى
وعن مقدار ما بقي من عدد الجسور . وكان معسكر الفيلق بين
المدفعية وخط القتال مكشوفاً للنيران فرأيت هناك اشخاصا ثلاثة
قائد الفيلق وفون كريس بك وعلي فواد بك .

اما جمال باشا فكان مطرقا مفكرا واما علي فواد بك فكان
ناشطا هادئا واما فون كريس فكان مصفرا صامتا خجلا ولكن
الثلاثة غير مكترئين بالنار . وما اعظم تبدل فون كريس عن
الليلة الماضية فقد تنكرت معالم وجهه واشتد التباين بين يومه
وامسه لما كان يلقي محاضراته وهو مفعم نشوة وثقة ورجاء ، فاضحي
مكفهر الوجه غائص البشاشة^(١) حزين الملامح قانطاً من كل شيء

(١) غاض الماء غيضا : قل ونضب

موليا ظهره القناة وراء معقل لا يعلو قيد شبر والقنابل تتساقط
في جوارنا بين حين وحين كأنها تبحث عن مكان المدفعية فيرفع
رأسه كريس بك خاشع البصر وينظر الى التراب المتصاعد نظرة
السكره البرم^(١) الذي يأسف على تلك القنابل وذهبها ضياعا
ويتمنى لو ان واحدة منها اصابته واودت به . فرحمت ذلك الرجل
الذي تهدم كل ما بناه من صروح الآمال ورجاه من الايام
والليالي في بضع دقائق حبيت اليه الموت على الحياة ، فحق على
علي ان ارق له واكرمه واجل قدره واليك وصف الموقف :

تحتل خمس كتائب من الفيلق الثامن مسافة ٤ كيلو
مترات امام طوسوم وسرايوم وهي تقابل على بعد ٢٠٠ او ثلاثمائة
متر من القناة ولم يبق في الاحتياط الا كتيبة من اللواء الثامن
والعشرين ووقفت كتيبة اخرى منه للدفاع عن الجناح الايسر
اذا حاول العدو ان يخرج جندا الى الجهة المقابلة بحماية الطرادات
والرشاشات والطيارات

وكان للفيلق مدفيعتان صحراوان سرهعتان تولفان
كتيبة مدفعية مستكنة وراء المعسكر في مسافة ٣٠٠ متر ترميه
طرادة البحيرة المألحة وطرادة بحيرة التمساح في آن واحد على

(١) ابرمه فبرم كفرح وتبرم : امله فل

حسب الرصد .

وقد ذهبت في الديلة الماضية جميع معدات الجسور واختار
 قائد الفيلق مشافهة قائد الجيش بالامر فقصدنا قصده في نحو
 الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر وتخلف عنا علي فوآد بك
 فسأل قائد الجيش قائد الفيلق عن رأيه بصراحة ووضوح
 لا غبار عليهما فأجاب : « مس الجنود الاعياء فينبغي تعبئة اللواء
 الثامن في الخطوط الامامية ولكن لا بد ان يصيب هذا اللواء ما
 اصاب اصحابه ونقل الذخيرة بتمادي القتال ولا يصبر طويلاً على
 هذا الموقف مع ضياع الذخيرة واشتداد العناء

ثم وجه قائد الجيش الكلام الى كريس وقال ليس القصد
 من هذا الاجتماع توزيع المسؤولية وعقد مجلس عسكري ولكن
 القصد معرفة حقيقة الموقف ، فيقتضي ابداء الرأي بمنزلة
 وحذر فالتمس فون فرانكنبرغ ان يوجه له السؤال قبل بصفة
 كونه رئيس اركان الحرب في الجيش وقال : لا يرجي النجاح
 ابداً في الثبات على الهجوم ويجب الخروج من القتال فوراً حتى
 نستطيع انقاذ التجربة والانسحاب بنظام واذا ابطأنا فليست
 العاقبة محمودة

فسأل قائد الجيش كريس قائلاً اذا كان يرجي النجاح بنسبة

٣٠ او ٤٠ الى المائة فإنه لا يجمع عن المخاطرة بالتجريدة
والحل الاخير متوقف على ما يراه فون كريس الذي يرجع
اليه العمل كله في ماضي هذه التجريدة فمن الصواب ان يكون
مستقبلها بيده . وقد اجاب القائد بقوله : لا يرجى النجاح مطلقا
ولكن الحماية والمروءة نقضيان على التجريدة بان تحمل على القنادة
فتذهب عن اخرها وذلك خير من أن تنكص على اعقابها ، فمن
رأيي المشاورة على القتال .

حقا ان هذا الرأي من اسمى ما يوحى به الشعر والخيال
وهو افضل خاتمة لهذه الرزية ينقلب بها غزو مصر الى ذكرى
تاريخية خالدة مكالمة بالكيل المجد والشهادة ومتممة لحوادث ابطال
« الثرموبيل » ^(١) وحماستهم المسطورة بل تفضلها طيب احدوثة

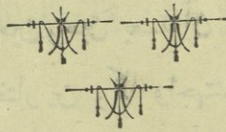
(١) الثرموبيل : مضيق شهير في تساليا بين جبل انوبه وخليج
ماليك ، فيه حاول « له اونيداس » مع ٣٠٠ من السبارطيين توقيف
جيش كسرى باجمعه فلم يخطر على بال كسرى ان هذه الشرزمة من
الرجال تستطيع ان تمنعه المرور فكتب الى « له اونيداس » كتابا ليس
فيه الا هذه الجملة : « سلم اسلحتك » فكتب « له اونيداس » تحتها « تعال
خذها » ولكن احد الخونة هدى الفرس الى شعب تمكنوا فيه من الاحاطة
بجبل انوبه . ولما رأى « له اونيداس » ان لا مفر من الموت دعى رفقاءه
الى طعام زهيد قائلا لهم : سنتعشى هذا المساء عند بلوتون « وهو ملك
الجحيم والاله الموتى » اه . — عن لاروس

وشرف ذكر ، فيكون السويس ضريح التجربة العثمانية التي لم
 نقض لبايتها منه ولا يبرح خيالها مائلا على ساحل هذه القناة ما
 دامت تفصل آسيا عن افر بقية ويبقى اثرها خالدا ما بقي الليل والنهار
 يحق لكريس بك أن يرى ذلك الرأي ولقد بلوت سره
 وعلايته وهو يريد أن يمضي في سبيله حتى يبلغ الكتاب اجله
 وهو لم يدخل في هذا الامر بعد حساب وفكرة وحكمة ولكن
 دخله مقامرا فليس من الحكمة الانصراف من لعه بل عليه ان
 يستمر فيه وكان الرأي الذي ادلى به آخر رمية له .

فابتدر الكلام فائد الجيش حينئذ قائلا : اذا لم يكن امل
 بالفوز فإنه بنفس^(١) بالتجريدة أن تراق دماؤها في سبيل الشرف
 المحض ، ولذلك صحت عزيمته على الخروج من المعركة وامر بما
 يقتضيه الانسحاب فنظر كريس بك الى القائل نظرة اليأس
 لان في هذا القرار الضربة القاضية على آخر ما يرجوه من امل
 وهو عنده افدح خطبا من ضياع الزوارق . وكان في قطع
 المحاربة وقرار الرجعة ظفر معنوي لرئيس اركان الحرب فون
 فرانكبرغ الذي هون عليه اخفاق التجربة وجبوت امرها
 انشاء فون كريس للشرف والذكر الخالد السرمدي وذلك ما

(١) نفس به (كسفرح) : ضم

كان يخشى ان يدركه اذا نجحت مقاصده وسيأتي معنا كيف
انتقم فون كريس لنفسه ، وكان اختلاف رئيسي اركان الحرب
الالمايين سببا في سلامة التجريدة ، وقد قال لي فرانكنبرغ بعد ايام :
اذا كان كريس يريد ان يموت فليذهب وليلق بنفسه في القناة
ولكن لا يحل له أن يحمل التجريدة العثمانية بأمرها على الأتتار
ولم يكن قائد الجيش كثير التلطف لهذا المصائب ولئن فاته
فحج مصر واخلفه منها الذي كان يأمل فحسبه الاوبة الى
ديار الشام .



١٠ - الاياب

بلاغ الانكليز في الآسنانة - النقاط الجرحى -
كيف تقطع صحراء النية؟ - المخاوف - الغنية
بالاياب - الماء في الخبرة الثانية - هلاك الابل
برقيتا المعسكر العام وملكينهاين - قيادة البادية ولن
تسند - كريس وفرانكنبرغ - موافاة القدس .

قاسينا عناء كبيرا في الاهتداء الى سبيل قصيدنا ولم
نتمكن من تحديد الوجهة بعد ان ارخى الليل سدوله وقد صادفنا
طالع مديد فكانت الانوار الكشافة تعين جهة القناة فنذتكبها
وكننا نستقبلها بين حين وحين بعد أن نرسم نصف دائرة في
ذلك الظلام غير مختارين وكما واجهتنا الانوار نكصنا على
اعقابنا وكننا ننادي من كل جانب « شمنطو ! شمنطو ! » وهو
جندي يهودي في خدمتنا فسمعنا آخرة الأمر صوتا ضيلا تعرفنا
به المعسكر ولا ادري ماذا كانت مصيرنا في جوف الليل
لولا الانوار الكشافة .

ولم نجد حاجة الى الاسراع بكتابة التقرير لانه لم يكن
اتصال برقي فسرنا ذلك وتسلينا قليلا لأننا لانضطر الى الانباء
بالنازلة في الحال

وفي غضون تلك المدة احاطت الاستانة علما ببلاغ
الانكليز وبقيت تنتظر ما يأتياها من لدنا وكانت تظن المصيبة
هنالك بأقصى شدتها فاذا جاءها تقريرنا هان عليها وخف
عنها الالم والفت وقع الحقيقة . والنجاح والحسران ، والسعادة
والشقاء كل ذلك في هذه الدنيا متشابه يقاس بعضه ببعض
واذا كنا نرمي الى فتح مصر فان النتيجة تعد هزيمة ولكن اذا
كان القصد القيام بمظاهرة عسكرية حول القننة فقد تمت
المظاهرة وتجلت بأبهى مجالها ، ولقد قال الجنرال فلكنهاين بعد
ثلاث سنين في القدس ان هجوم القننة بسر اعداد اساليب الدفاع
عن الدردنيل والتمكن منها . فجاء بالفوائد المطلوبة من حيث
تعبئة الجيش

والناس يعلمون انفسهم عند مواجهة المحال ويهونون عليها
والياس احدى راحتين ، والسعادة التي نسعى وراءها ولا
ندركها هي التي تثير الاضطراب . وكان من المستحيل ان
تستولي على مصر الدول المركزية التي ملكت عليها مخارج البحار
ومسارها ولم تكن نرى هذا المستحيل ولا نعتقد به غير اننا الآن
لما جربنا بانفسنا فعلنا ما لم نكن نعلم ورأينا ما لم نكن نرى
عادت الينا عوازب احلامنا وايقنا ان ما كنا فيه هو الباطل

فاسلمنا اجفاننا الى الكرى وغمنا ليلتنا هادئين مطمئنين ولم نشعر
بما وجدناه من راحة ولذة حتى افقنا ورأينا السماء قد امطرتنا
وبلت ثيابنا

وقضينا اليوم الثاني والعشرين من شباط سنة ٣٣٠ في
كتيبة الجبل ونحن نلتقط الجرحى ونلم الشتات ونضم النشر
ولو نازلنا العدو حينئذ لنازلناه وصمدنا له .

وقفنا نتساءل كيف تقطع صحراء التيه مرة ثانية ؟ وذلك
اهم شيء لدينا لأننا لم نعد له عدة بل لم تعرض لنا الرجعة على
على بال ولا بدان القراء عرفوا من مظالمه ما كتبه ان كل ما
بذل من المساعي هو لاجل بلوغ القناة والمكث امامها نحو
بضعة ايام وكنا نعتقد ان الاوبة من صحراء سيناء مرة ثانية هي
الهلاك بعينه . فما من وسيلة الى النجاة الا اختراق القناة والانتقاض
عليها والعبور الى العدو الثانية حيث الأمن والامان ورغد
العيش وطيب الحياة وقررة الاعين وبقية النفوس .

فاما وقد كتبت الرجعة ولم يبق محيص عنها فأين الماء
والميرة وهل تأتينا قطرات الابل بما نحن في حاجة اليه فننجينا من
الهلاك ظمأً وجوعاً وليس دفن التجربة في التيه الا امرأ يسيرا
هيناً . وقد بقي علينا ان نحسب حساب العدو ومتابعته لنا اذ

يمكنه ان يسوق فرسانه كلهم الى العدو الثانية من القناة عندما يأتيه نبأ انسحابنا فيقتفوا آثارنا بسرعة ويثلموا خط رجعتنا او يحدقوا بنا . فتجاذبتنا هذه المخاوف وقضت علينا ان نسرع بالرجعة غير ملوین على شيء ولا يجوز اضاءة ساعة واحدة ولا الوقوع في خطأ مهما كان يسيراً لأن الموقف شديد الخطر عظیم الحرج . وقام في نفوسنا مقام فتح مصر الاكتفاء بسلامة العودة ورضينا من الغنیمة بالاياب وكانت تترامى لنا هذه الصحراء كمدى لا يقاس به عدو ، وكذلك اصبح همنما فما اشد هبوط الفكرة في مدة اسبوع ؟

وفي ليلة ٢٢ = ٢٣ من شباط سنة ١٩٣٠ برحت الحملة بأسرها كتيبة الخيل الى الخبرة الثانية وكان علينا ان نمتطي الليل وتتأهب في النهار للقتال الى ان ننأى عن ساحات الحرب فوجدنا صهر يج الماء في الخبرة الثانية محاطا بالحراب ومعنى ذلك انه لا يزال فيه ماء وان كان نقص عما قبل ثم قسنا عمق المياه واستطلعنا مقدارها وحسبناه حسابا دقيقا ، والاضطراب بالغ منا حده فوقعنا فيه على سقاية ايام

ما اعظم هذه البشري انها كانت دليل النجاة وعنوان الخلاص وعونا كبيرا على الارتداد فحولات قطرات المياه الى قطرات

مؤن وارسلت رسل الضباط من الهجانة الى المنازل لترسلها
وتجد في سوقها ولا ترفه عنها حتى تصل اليها .

استرخنا يوما في هذا المكان الذي تيسر فيه للجنود ان
يحملوا معهم ماءً يعينهم على قطع المنازل التي لا ماء فيها والحمد
لله على ما انعم علينا في ذلك الصهر يج ولو اننا لم نجد فيه ماء لكان
الهلاك نصيبنا على غالب الظن . وقد علمنا فيما بعد ان البريطانيين
حولوا ماء هذا الصهر يج الى صهر يج آخر .

ومضى عليّ زمن غير قصير لم امس فيه الماء ففكرت في
الخبرة الثانية ان اسأل حامي الماء سعد الله بك رفيقي في المدرسة
شيئا قليلا اغسل به وجهي ويدي ورجلي ولم يكن عدلا ان
يطلب مدير شعبة الاعمال الحربية هذا الطلب من الذي تولى
توزيع المياه فكأنه يدعوه الى مخالفة ما لديه من الاوامر والواجبات
فترددت قليلا في الطلب ثم رأيت الليل أفضل الاوقات فذهبت
اليه ورجوته فأجاب طلبي بكل لطف ولكن تبين لي انه يعاملني
معاملة استثنائية

وقد انعم الله علينا في الحياة المألوفة بنعم لا تحصى ولا
نعرف قدرها الا عند فقدانها فتذكرت في الخبرة الثانية عيون
الاستانة وعرفت فضلها وجمالها

خرجنا في النهار من الحبرة الثانية وتوجهنا الى الجفجافة
وكنا نشوف بابصارنا ومناظرنا الى المسافات البعيدة لنرى
قطرات المون فعثرنا ببعضها بعد انتظار طويل

وقد اصبحت الابل كأنها هياكل عظيمة من الجوع والجهد
وكنا نتعجب من مواصلتها الدأب على مثل هذه الحال ونحن
مضطرون لبدلها فدية في سبيل انقاذ التجريدة وقد هلك عند
عودتنا الى بئر السبع ٧٠٠٠ بعير اشتركت في تجريدة القناة
بعد ان برّح بها الجوع والظمأ وواصلت السير بالسرى

وليس الالام التي ابقتهما الحرب في القلوب من
تجريدة القناة الاولى وحدها بل في نواحيها ووادعها^(١) ما يزيد في
المضض والكرب فقد هلك نحو ٦٠٠٠٠ بعير على هذا المثال
وابل الاقاليم الحارة ذات شعور وحس دقيق ولا تستطيع مواصلة
عمل منظم كما لا يستطيع الجندي ان يقوموا بأودها ، ومن الخطأ
الفادح ان يظن بأن الابل تتحمل من العطش والجوع والعنت
ما لا حد له .

وفي ٢٥ شباط سنة ٣٣٠٠ اقبل علينا رسول يحمل هاتين

البرقيتين :

(١) الهوادي : الاوائل والتوالي : الاواخر

١ = المعسكر العام في ١٣ شباط سنة ١٣٣٠

ان اخفاق الجيش في الاغارة على القنّاة يحدث اسوء تاثير
فيجب الهجوم عند التثبت من النجاح ولذلك فحسبكم ان نتظاهروا
امام القنّاة وتعطلوا السير فيها .

اما البرقية الثانية فهي المازنية العبارة من الجنرال فلكنهاين
وفيها : « ان بعد قوة عثمانية ضئيلة يسيرة عن قاعدتها وامعاتها في
التقرب الى قواعد العدو يكونان سبب الوقوع في الشر فينبغي اتخاذ
كل حيلة وحذر » . فكلاهذين الامرين لا يقولان بالهجوم على
القنّاة والهجوم وقع قبل خمسة ايام والعمل الذي انجزناه من ذات
انفسنا اكثر مما يطلب منا والبقاء امام القنّاة ، مع النظر الى مسألة
الماء والميرة والذخيرة وقلة الوسائط الثقيلة ، من قبيل تمني المحال
ويجبني في هذا الصدد ان اذكر كيف وجدت النجريد
ماءها وموئها :

لم يكن في البادية ماء جار على الاطلاق وكان في بئر
السبع وحفير العوجة آبار غزيرة المياه وفي كل من الخلاصة
وبئر حامه والخبرة الاولى بئر يكفي لورود بضعة آلاف وفي
وادي العريش والخبرة الثانية صهاريج ماء وفي كل يوم يملاً
المرء وعاءه من الماء وترد الابل ربعها . والموئ توزع بانتظام

والشعير مفقود فتأخذ الابل بدلامنه كل يوم نصف كيلو من
حبات البقساط .

ولما وافينا الخبرة الاولى وجدنا الخطوط البرقية ممدودة
اليها وكانت تنقل الاعمدة على ظهور الابل التي تحمل لانهم يكن
سواها من عدد النقل فوصل البرق في ٢٢ شباط سنة ١٩٣٠ الى
الخبرة الاولى وفرشت الاسلاك المغلفة بين الهلال والابن ولكن
الابل كانت تطأها فتكسرهما ولذلك تحتم رفعها على الاعمدة .
ولم تكن المواصلات التلفونية منظمة مأمونة الا بين كتيبة الخيل
والخبرة الثانية .

ولما عدنا الى الابن وجدناها متحسنة مزدانة وقد استنبط ماء
مالح في مسافة ساعتين منها وتكاثرت فيها الخيام والمصابيح واصبحنا
نراها بلدا معمورة بالقياس الى الجفافة

وعادت الينا الخيالات بتباعدنا عن القناة فانشأنا في الابن
قيادة بادية لتابعة اعمال الافلاق والازعاج . ولما كانت تلك
الاغارة تسمى في عرف رجال العسكرية كشفنا هجوميا وجب
الانتفاع منها والتأهب للهجوم الحاسم والاستعداد الكافي له ولذلك
اصبحت تسمى التجربة السالفة رحلة القناة الاولى فان كان اخفق
الهجوم فقد اخذت تتوالى بعده اسفار وحملات كان مقدمة لها .

فمن الذي ينبغي ان توكل اليه قيادة البادية ؟ ومن الذي
ينبغي ان يتوجه الى المانيا ليقدّم البيانات الشفوية ويعمل على
اجتلاب العدد اللازمة لاستئناف الكرة وكان ينبغي ان يسافر
فون كريس بك الى المانيا ولكن رئيس اركان حرب الجيش فون
فرانكنبرغ بك فاز بهذا النصيب وغلب عليه ، وقدرت له حظوة
المثول بين يدي القيصر فقرر ذهابه وقلد فون كريس قيادة البادية
ورفع من شأنها لمرضاته فجعلت معادلة لقيادة الفيالق وكان في
ذلك ظفر ثان لرئيس اركان حرب الجيش « البروسي » على رئيس
اركان حرب الفيالق « البايري » . وغادر فون فرانكنبرغ القدس
في سيارة فخمة اقلته من جوار الباب الاكبر لبناية (اوغوستا
فيكتوريا) وله في الحقيقة الفضل والسبق على فون كريس الذي
عاد الى الصحراء ولكنه سينتقم لنفسه ويستفيد من هذه التضحية
التي جماعت له صحراء سيناء مركز استناد كمرکز استناد (ارشيد)
ينيله كل ما نصبوا اليه نفسه من المطامح .

واجتمع الرجالن بعد ثلاث سنين في الساحة نفسها وبينهما
فرق عظيم فلم يبلغ فرانكنبرغ الذي صحب فلكنهاين في تجريدة
الصين وصحبه في هذه المرة غير رتبة قائد لواء من المشاة ولم يكن
على صدره غير الصليب الحديدي من الطبقة الاولى ومدالية

امتياز فضية • وأما فون كريس الذي هو اصغر منه سناً فقد أصبح جنرالاً وباشاً وقائد جيش ونال أجل المدايات الألمانية والعثمانية فاستقبل مواطنيه بهذه الحال •

ولما قطعنا الابن وأم شيخان ووادي العريش والهلال واصبحنا بأمن اخذنا نسير في النهار ونسكن في الليل

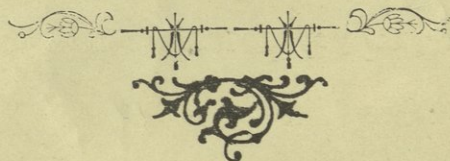
ثم اني صادفت كتبية الاستحكام التي اصابتها الحسائر العظمي في الحملة وقد اضناها السير على هذه الرمال التي لاحد لها يوصف وعجزت ثيرانها عن جر الاثقال بسبب مانالها من الضعف فرثيت لجالها وترجلت فمشيت بجانبها قليلا لعلني اشاركها في آلامها او ا- تنفغر لذنبنا اليها •

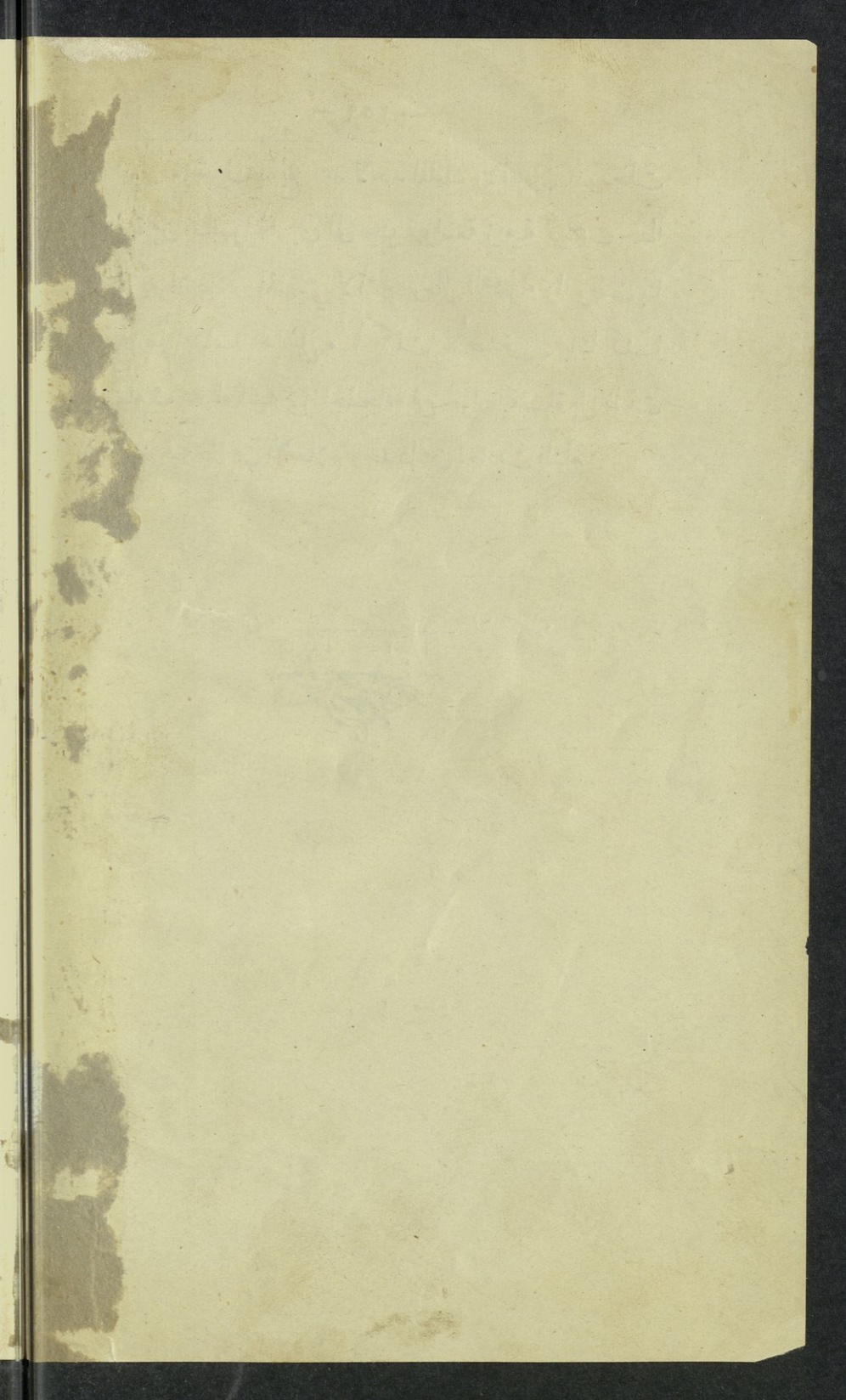
مسكينة انت ايها الثيران! ياثيران الاناضول ياثيران ام الوطن! لقد ذهب ما قاسيت من عناء وعنت ادراج الرياح • ولقد ترأى لي في هذه الثيران ووقع في قلبي كل ما لقيته ام الوطن من شقاء وتذكرت جراحها الدامية وانعابها الضائعة في سبيل الاوهام الباطلة وكذلك جمالها وعصمتها ورحمتها وتفانيها • انها لذكرى مؤلمة مشجية! ومن يعلم ياترى لاي يقيم هذه الثيران؟ ومن هي المرأة التي ابقى لها زوجها ذلك الثور تدبغ منه بعد ان لحق بربه في البانيا او اليمن فسلب منها باسم التكاليف الحربية لفتح مصر •

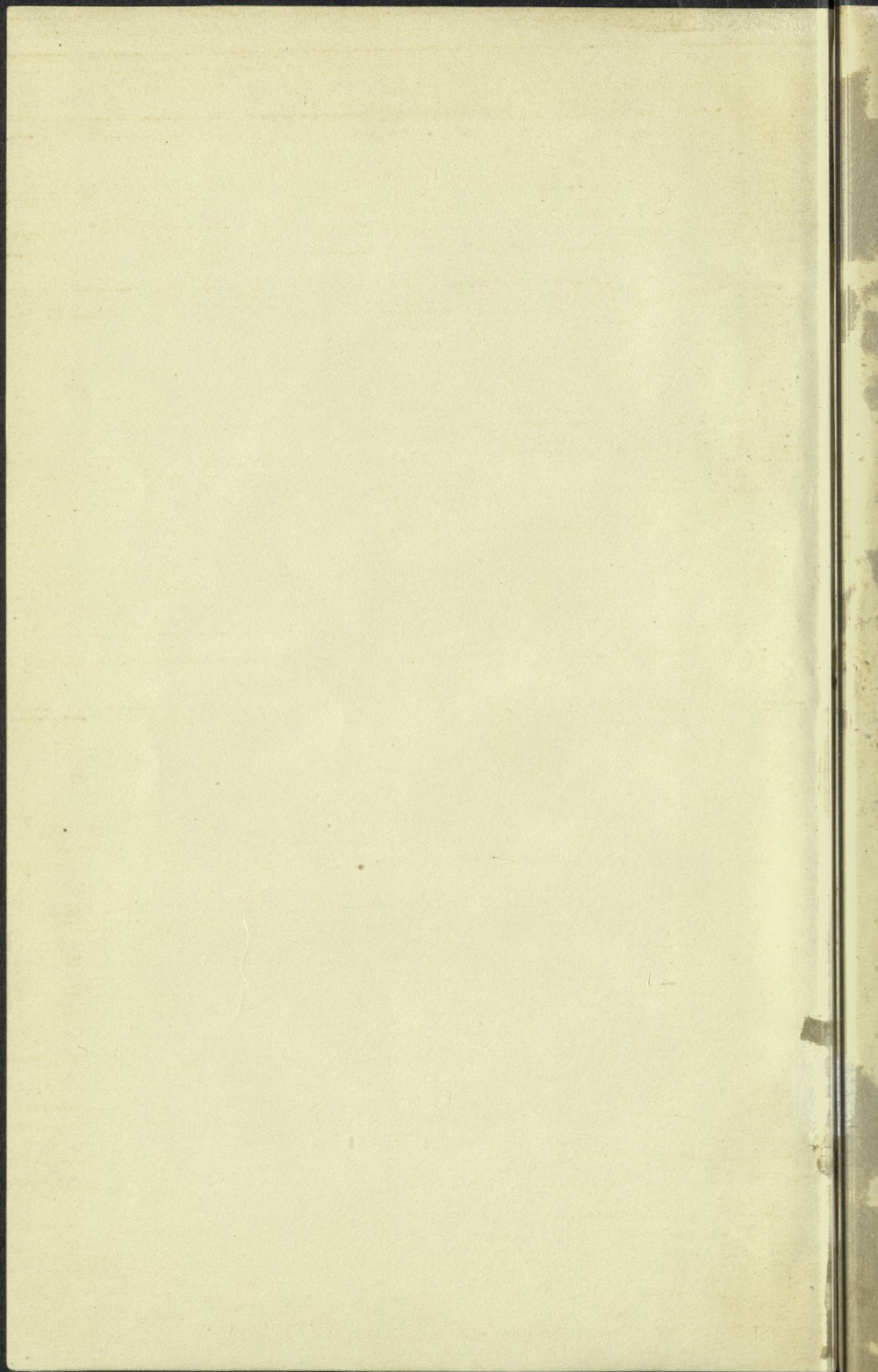
مهد طريق للسيارات بين الحفير وبئر السبع فأرسلت
سيارتنا الى الحفير وكنا في اوائل الربيع وقد نشر على وجه
الارض غلالة رقيقة خضراء فبدأنا نشعر بأننا دنونا من الحياة
الطيبة والمدنية الزاهرة والطبيعة الحسنة ، ولما رأينا مباني بئر
السبع ومسجدها وسوقها وازقتها واشجارها ايقنا اننا انتهينا من
الصحراء وخلفنا وراءنا عهد البداوة والوحشة فاستقبلنا قائد
الحدود بهجت بك الزعيم اركان الحرب بوجهه الطلق واسترحنا
هنيهة ثم استأنفنا المسير الى القدس وكان ذلك اليوم ثاني مارس .
وقع الاختيار على مدينة القدس لتكون معسكرا للجيش اذ
هي اقرب الى القناة وامر ان يتخذ مستقرا في بنيان اوغوستا
فيكتوريا الفخم الذي اطلق عليه اسم قيصر الالمان
وكان جمال الطبيعة يزداد في عيوننا بهجة ورواء ونحن
بين بئر السبع والقدس حتى اصبحنا نشاهد كل شيء احسن
واجمل مما كنا نشاهده

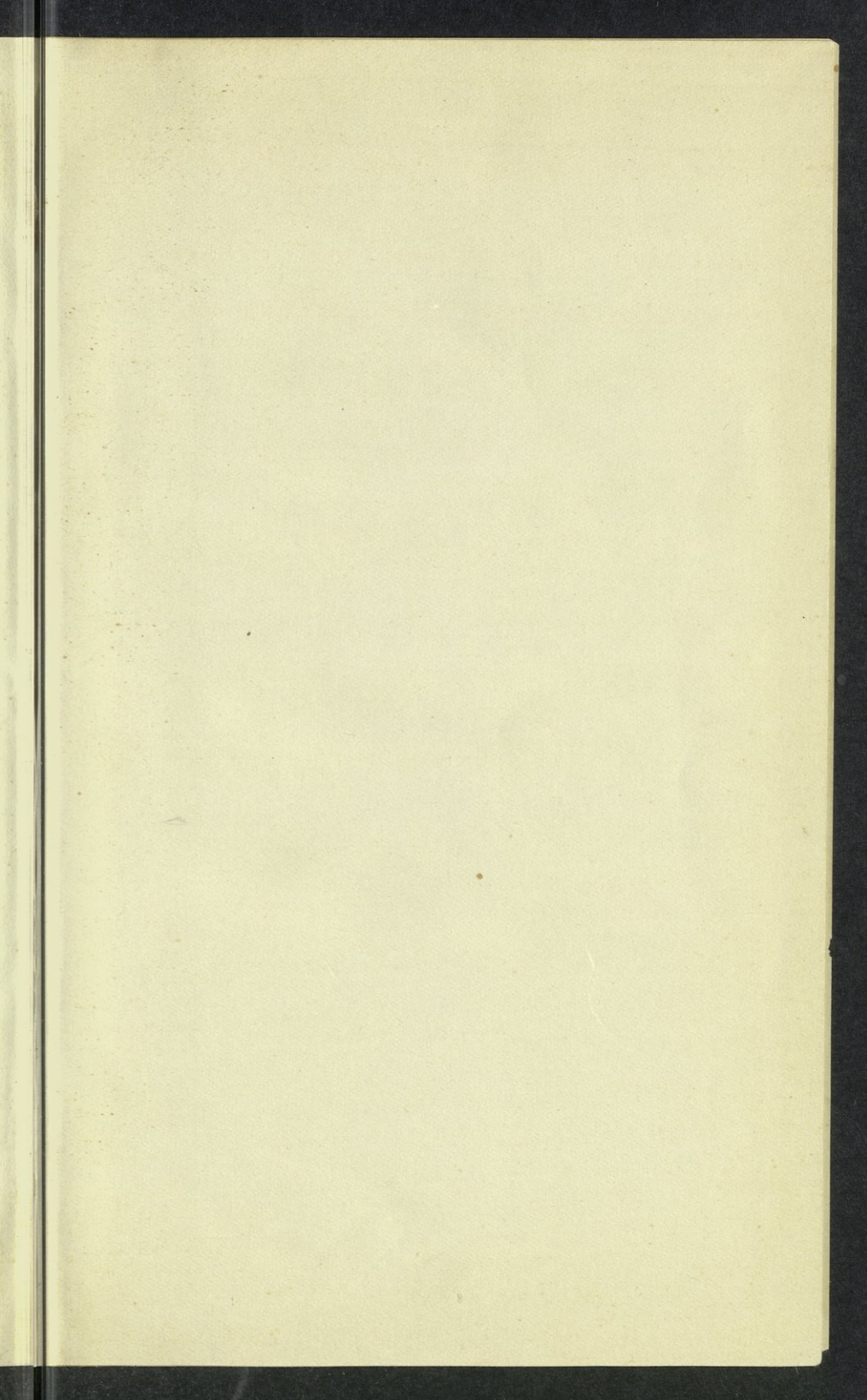
ثم وصلنا القدس في ليلة قراء هادئة وقد نامت العيون
في المدينة وسكنت حركة اهلها وكانت بناية اوغوستا فيكتوريا
المشرفة على المدينة والمطلّة على بحر لوط قائمة في تلك البقعة
وانوار القمر تشرق عليها فيظهر في نهر الشريعة خيالها وكأنما

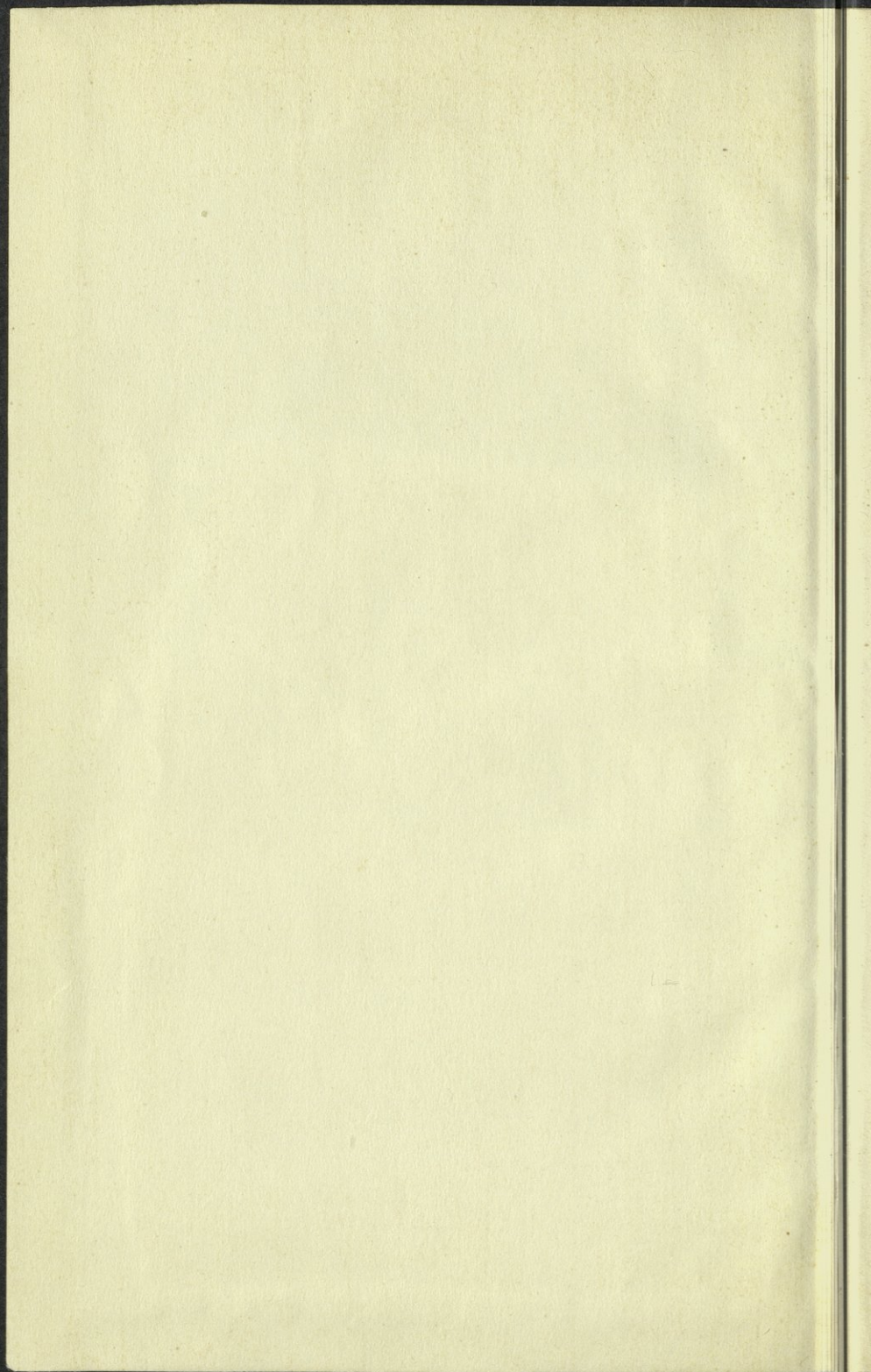
هي ابوان مزخرف بديع اعد لاحد الملوك الاقدمين . ودخلت
السيارة من الباب الخارجي الى جنينة واسعة زاهية فرسمت خطأ
منحنيا جميلا على رمالها التي لاتشابه رمال الصحراء ولما وقفت بنا
في فناء سلم الباب الداخلي ما كنت لأصدق اننا كنا
قبل ايام في صحراء التيه في الجفجافة في جوار القنطرة بل ظننت
ما كنا فيه حلما من الاحلام وحديثا من احاديث النيام











CA

940.42:F94hA

c. 1

فؤاد

الحملة المصرية اومن باريس الى صحراء

CA:940.42

F94hA

JAFET LIB.

c. 1

~~JUN 1980~~

~~3-Jan-65~~

JAFET LIB.

29 JUL 1990

~~4 Feb. 65~~

JAFET LIB.

1 MAY 1990

~~21 Jun. 65~~

JAFET LIB.

24 SEP 1990

CAI 940.42:F94hA:c.2

الارمنازى ،نجيب

الحملة المصرية او من باريس الى ص

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01053856

CA
940.42
F94hA

C.1